وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب



البطل في وقفته الأخيرة

مجموعة قصص

مفيد عيسى أحمد

قصص قصيرة ٣٠

البطل

في وقفته الأخيرة

تصميم الغلاف

فراس نعوف

مفيد عيسى أحمد

البطـــل
في وقفته الأخيرة

مجموعة قصص

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١١م

البطل في وقفته الأخيرة: مجموعة قصص / مفيد عيسى أحمد . - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١١م . - ١٢٠ ص؛ ٢٠ سم.

(قصص قصيرة؛ ٣٠)

١ - ٨١٣,٠١ أ ح م ٢ - ٨١٣,٠٠٩٥٦١ أ ح م
ب ٣ - العنوان ٤ - أحمد ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة

«٣٠»

سفر الكلمات البعيد

اليوم الأول لي في هذه المدينة.

نافذة غرفتي معبأة بالأزرق، زرقة بحرية غامقة منبسطة تجعدها خلجات متتابعة، تبهت في بقع وخطوط متعرجة تبتعد وتقترب من الشاطئ، تصافح زرقة سماوية وخطتها نتف بياض على مرامي الأفق.

عدت إلى فندق الأوراسي بعد أن راجعت وزارة التعليم، دخلت عدة مكاتب وملأت استمارات ببيانات كتبت نفسها، قالوا لي: لم يتم تحديد مكان عملك إلى الآن، عليك أن تراجعنا غداً.

أخرجت الورقة من جيبي، كنت قد أخذتها معي لأتصل أو لأتعرف على العنوان المدون عليها ونسيت، سطران بالفرنسية، اسم ورقم هاتف، لماذا لم يكتبها بالعربية...!؟ لقد أخبرته أني مدرس لغة عربية وليس فرنسية، لم يكترث، ربما هناك أمر لا يريدني أن أطلع عليه لكني أستطيع أن أطلب من أحد ما ترجمتها،

الأمر ليس هكذا، رفعت سماعة الهاتف وطلبت الرقم، رنَّ الهاتف إلى أن فصل ولم يرد أحد، أعدت الورقة إلى قلب ديوان الشعر حيث كانت.

استلقيت على السرير، أغمضت عيني، ما زال رأسي مشوَّشاً بلغط الشارع، أبواق السيارات، هدير وغناء، لا أفهم لهجة أهل هذه المدينة، أركّز وأحاول، أستوعب كلمات قليلة فقط، السكون سيدة الحركات هنا، هي الأقوى، الفتحة أفق والكسرة قسر والضمة كمون ومخاتلة.. لكن السكون بغمرتها الخفيفة وتدويرها كأنها عودة على بدء، هي مفتاح ورتاج منها يبدأ الكلام وبها ينتهي، وعلي أن أحرَّك ما سكن لأفهم ما يقال، ليس هذا فقط بل يجب علي فصل الكلمات عن بعضها، وعن كلمات أخرى بالفرنسية، فالكلام يجري على ألسنة هذه المدينة بسرعة تجعلني قاصراً عن إدراكه.

مدينة حائرة بين طابعين، غربي هجين وشرقي عتيق، يبدو ذلك من لباس أهلها وأبنيتها تستطيع هنا أن تسمع رطانة فرنسية وعربية لاهثة تسوقها السكون ويلجمها النزق.

تعاودني كلمات ذلك الرجل الوادع الذي رأيته يجلس على كنبة منخفضة في مكتب الموفدين بوزارة التربية في دمشق

ستحب ذلك البلد وستحب العاصمة بالتحديد لن تخلص من وحشة الأماكن الجديدة لكنها ستخف وفي النهاية ستألفها، الأمر يحتاج إلى زمن، صمت للحظات شردت عيناه من النافذة وقال بهدوء من يُقِّر بأمر ما: ستحبها، والحب الراسخ لا يداخل النفس بيسر،أنت الآن على سفر لكن عليك أن تعرف أن هناك سفر أشق وأبعد، سفر لا علاقة له بالمسافات، ستكتشف هذا فيما بعد.

لم يحد هذا القول من إحساسي بالوحشة (هناك سفر آخر، قد تسافر في وجه وربما في قصيدة أو في لوحة أو موسيقى)، لا أفهم هذا الكلام الآن، السفر هو السفر، مسافة واجتياز. أفهم ما أراه وما وصفه لي وهو يبتسم بلطف: الجزائر بلد جميل. تشبه شاباً يافعاً بهي الطلعة طيب وقوي لكنه يحتاج للتروي، يبدو هذا الكلام صحيحاً خاصة من لهجة أهلها، تستطيع أن تنزل في فندق الأوراسي فهو يتوضع في أعالي المدينة مشرفاً على أحيائها وعلى البحر تتدرج منه سطوح حي القصبة هابطةً إلى الشاطئ، يهيمن على مداميك من الأبنية، بيوت قديمة وحديثة، قصور، فنادق وجوامع، تتوزع كلها بين درجات البياض.

تناول قلم وورقة، كتب سطرين وناولني إياها وهو يقول: اتصل بهذا الرقم، سيسهل أمورك إذا واجهتك مشكلة.

تناولت الورقة، سألت الرجل، من حضرتك، من أقول له؟

- سليمان... سليمان العيسى... انتظر، انتظر قليلاً.....

أتحب الشعر ..؟ لم أجب، وهو لم ينتظر جواباً، أخرج نسختين لكتاب من محفظته، كتب على إحداها باللغة الفرنسية أيضاً، ثم سألني عن اسمي، وكتب على النسخة الثانية إهداءًا لي (الأستاذ شكري: ليس السفر تبديل أمكنة، سفراً سعيداً).

كانت أول مرة أرى الشاعر سليمان العيسى، شخص دمث لا تفارق ابتسامته الكيّسة وجهه، قرأت الكثير من شعره، وهاأنذا أتمعن في وجهه. مأخوذاً به كمن يقرأ قصيدة من قصائده.

شكرته وغادرت الوزارة، التفت إلى الوراء، كأني أرى واجهة المبنى للمرة الأولى، واجهة مستديرة بلون خامل، لون رمل رطب.تتصدر ساحة الشهبندر.

لانت حدة الحر، الجو أضحى أرق وألطف، أحب دمشق في فصل الخريف، لكني كنت سأغادرها بعد أيام.

يومان في الجزائر.

كأني وصلت للتو، ما زالت دمشق بكل حراكها وهدوئها تملأ كياني، جلست قرب النافذة، فتحت حقيبتي أخرجت ديوان الشعر من بين بضعة كتب جلبتها معي، برزت من صفحاته الورقة،

حاولت القراءة ولم استطع، وضعت الديوان على الطاولة ووقفت أرنو إلى البحر من النافذة الواسعة، ثم إلى الشوارع والأزقة الضيقة المتشعبة في المدينة القديمة تتقطع في انعطافات، وتتغلق بجدران، تتلاقى بأخرى. يشغلها بشر بألبسة مختلفة، سحنات متشابهة، يمضون أو يجلسون أمام متاجرهم، يقضون أعمالهم، يتكلمون ويدبون بسرعة، الجزائريون ذوو حيوّية وحميّة، من هنا. من حي القصبة انطلقت أولى شرارات الثورة الجزائرية، بعد الأوراس. كان ذلك في عام أربعةٍ وخمسين وتسعمئةٍ وألف.

في طريقي إلى الفندق لم أستطع استيضاح المدينة، لكني لاحظت أنها مدينة يحكمها الضيق، شوارع ضيقة، أبنية متقاربة ودكاكين متراصة. استلقيت على السرير غفوت للحظات تراءى لي وجه سليمان يبتسم ويقول (ليس السفر تبديل أمكنة) ليس السفر ..أفقت على صوت قوي نفذ من الخارج، نهضت، اتجهت إلى الهاتف طلبت الرقم المكتوب على الورقة، رن الهاتف في الطرف الآخر رنات متتالية، لم يرد أحد.

أخذت الورقة بيدي ونزلت إلى بهو الاستقبال، اقتربت من الموظف وضعتها أمامه وسألته إن كان العنوان بعيداً، أشار بيده إشارات متداخلة مترافقة مع دفق كلام لم أفهم منه شيئاً فشكرته وتأكدت أنه علي أن أبقى مكاني .

جلست، أرقب حركة النزلاء، أفارقة وغربيون، عرب بأزياء مختلفة، الردهة طولية تشغلها أرائك خشبية مزخرفة، الجدران مزينة بصور وتحف شرقية، في صدرها عُلقّت نسخة عن لوحة رأيتها سابقاً ليوجين دولا كروا، طلبت الرقم ثانية دون جواب، صعدت إلى غرفتي، بدأت العتمة تنش في الفراغ بدت فوق البحر أكثر قتامة وهي تتداخل مع زرقته، خرقتها أضواء تلألأت متطاولة بخطوط مرتجفة تنبعث من سفن متوقفة وتتناهى إلى التلاشي.

قبيل الفجر نمت نوماً خفيفاً، ليس نوماً كأني في حلم أو معلق على ذلك الحد الفاصل بين اليقظة والنوم، حسبت أني ما زلت في دمشق، لحظة نهوضي ذكّرتني أصوات الباعة واللهجة الجديدة أني هنا، من النافذة رأيت البحر انبساطاً أزرق صافياً وهادئاً.

أخذت أوراقي وغادرت الفندق قاصداً وزارة التعليم، أخبروني أني عينت في مدرسة شمالي العاصمة، بدأ أحد الموظفين يشرح لي كيف سأصل إلى هناك، طلبت منه أن يسجل ذلك على ورقة، فابتسم وبانت أسنانه الطويلة.

ناولني الورقة سألته وأنا أشير إلى الهاتف، هل أستطيع إجراء اتصال هاتفي ..؟

دفع الهاتف نحوي وأدرت الرقم، كدت أضع السماعة بعد رنات عديدة، لكني سمعت صوتاً أنثوياً يرد بلغة فرنسية، لم أفهم شيئاً، اعتذرت وأغلقت الخط، خرجت من المبنى اشتريت جريدة وسرت إلى البحر، جلست على أحد مقاعد الرصيف، لم أقرأ من الجريدة حرفاً واحداً، فقط كنت أتأمل البحر، اعتدت أن أجلس على شواطئه في الطرف الآخر، كما أجلس الآن صامتًا، لا أجد داعياً للكلام، حتى مع وجود أصدقاء، أعرف هذا البحر من طرطوس واللاذقية، من بيروت وطرابلس، لو أستطيع الامتداد مثله إلى هناك الآن، حينها سيصدق ما قاله سليمان (ليس السفر تبديل أمكنة).

خمسة وعشرون يوماً في هذه المدينة.

انقشعت وحشة الأمكنة الجديدة، بدأت أعتاد لهجة أهل المدينة بعد أن استأجرت شقة صغيرة وأصبحت على اتصال دائم بالناس. ساهم بذلك انخراطي بالعمل، وتلك العلاقة التي بدأت تتوطد مع تلاميذي، علاقة لها طابع واحد في كل مكان، غير أن هناك أشياء لم آلفها، هجوع الشمس خلف الجبال، تربكني جهة الغرب، هي البحر في بلدي، هنا في هذه المدينة، الشمس تسري موازية للبحر لتحتجب خلف الجبال، ولا تتقاطع مع البحر، أحياناً عندما أريد تحديد جهة الغرب أشير بشكل عفوي إلى البحر، يصحح لي تلاميذي ويبتسمون.

في محفظتي الصغيرة حملت الديوان الذي أهداني إياه سليمان، لم أكمل قراءته إلى الآن، ما زلت أقرأ من وقت لآخر مقطعاً أو قصيدةً، قرأت على تلاميذي قصيدتين منه، الورقة التي كتبها لي مازالت تتنقل بين صفحاته، في غرفة المعلمين أردت أن أقرأ على زملائي قصيدة وجدتها جميلة، سقطت الورقة من الديوان، التقطتها، طلبت من أحد المعلمين الاتصال بالرقم المكتوب عليها، دق الرقم ثم بدأ يتحدث بالفرنسية، أعطاني السماعة قلت: أنا لا أتكلم الفرنسية.

قال : ماذا تريدني أن أقول للرجل.؟

- أخبره أني أحمل سلاماً ورسالة له.

وضع يده على السماعة وسألني:

- ممن ..؟

- من سليمان العيسى .

- يسأل إن كنت تستطيع مقابلته غداً.

- نعم .

- يدعوك إلى العشاء غداً في الثامنة مساءً في مطعم الريفيرا.

ثلاثون يوماً

أشار النادل إلى طاولة في أقصى الصالة، جلس عليها رجلان، مضيت نحوهما، نهضا تبادلنا التحية وتعارفنا.

- مالك حداد قال أحدهم بلكنة أجنبية.

- الشاذلي، تابع الآخر.

عرفتهم بنفسي، صب الشاذلي ثلاث كؤوس وهو يحيّيني، ابتسم مالك بلطف ورحب بعربية ثقيلة، قال أربع كلمات عربية مكسرة (أهلاً وسهلاً بيك بالجزاير).

أعطيته الورقة، فضها ثم قال: رسالة للأستاذ مالك وناوله إياها.

ركز نظارته ثم قرأ السطرين المكتوبين باللغة الفرنسية بتأنٍ، وضع الورقة جانباً ارتشف من الكأس، نزع نظارته من جديد، ابتسم برقة، ثم بدأ يردد كلمات بالفرنسية مفعمة بالإحساس، لم أفهم ما يقول ولا داعي لذلك كي أحس أنه شعر.

وجه مالك وهو يلقي الشعر كوجه سليمان، فيهما تعبير آسر، وحضور قوي، قال للشاذلي عدة كلمات، التفت إلي وقال:

- الأستاذ مالك يعتذر منك فهو لا يعرف العربية وهو سعيد جداً بالرسالة. يسألك أين رأيت الأستاذ سليمان ؟

- في دمشق.

أخرجت الديوان من محفظتي ناولته للأستاذ مالك. وقلت:

- أوصاني الأستاذ سليمان أن أوصله لك.

قرأ ما كتب عليه، ابتسم وبدا تصفحّه، قربّه من عينيه وكأنه يريد ضمّه ثم وضعه أمامه وعاد يلقي شعراً بالفرنسية، بدأت أتمعَّن بوجهه وترددت في سمعي كلمات الأستاذ سليمان، قد تسافر بوجه أو قصيدة .. أو...

توّقف عن القراءة وتدّفقت ذكرياته في حديث عن سورية والجزائر، الكتب والأدباء، وعيناه تبرقان فرحاً، الشاذلي كان يترجم بسرعة محاولاً ألا يضيع حرفاً واحداً، منفعلاً بالكلمات كمن ينطقها.

أعطى الديوان للشاذلي وطلب منه أن يقرأ. قرأ عدة أبيات، أشار له مالك أن يتوقف ثم طلب مني أن أكمل، تابعت القراءة، لم يكن يفهم الكلمات لكنه كان كمن يعيد كتابتها. كنت أقرأ وأسمع صوتي كأنه لشخص آخر.

ليس المكان مكاناً الآن ولا الزمان، لا شيء يبطل غربتهما سوى الفن والأدب وذلك الشعور بالسمو الذي يحضّه في داخلك أشخاص تحس وكأنك تعرفهم لا تدري متى رأيتهم وكيف،

كنت أعرف مالك والشاذلي وسليمان منذ زمن غابر لا يمكن تحديده، لا داعي لأراهم كي أعرفهم فالمعرفة تسبق الرؤية أحياناً وقد تقصر عنها.

أشار مالك أن أتوّقف ثم طلب مني الديوان، سادت فترة صمت قصيرة، جرع من كأسه بسرعة ثم فتح الديوان على القصيدة الأولى، حاول قراءة عنوانها، ساعده الشاذلي، هجّأه بشكل متقطع رفع الكأس، أدناها من فمه، لم يرتشف، أعاده إلى الطاولة ورفع الديوان باليد الأخرى حاول القراءة من جديد، لفظ أحرفاً منفصلة، تلعثم لسانه وتوتر، امتقع وجهه، أدنى الديوان أكثر، قلص عينيه مركزاً، وضعه برفق ثمً تناول الكأس وجرع ما فيه دفعة واحدة بقي في فمه للحظات تشّنج وجهه ثم كز بأسنانه وعض علية بحنق، احتقنت عيناه ومن بين أسنانه خرج صوت طقطقة وتهشم، ما لبثت أن نزفت قطرات قانية من شفتيه ولسانه، للحظة بقينا صامتين مذهولين ثم هببنا واقفين تناول الشاذلي منديلاً وأمسك مالك من يده، لكنه بقي جالساً وأشار له أن يجلس.

اكتمل المعنى الآن، لا السكون ولا الحركات ولا الحروف، لا كلمة في لغات العالم تناسب هذه اللحظة

نهض مالك بهدوء ودخل إلى المغاسل، طلبنا من النادل كأساً جديدة، عاد وبيده منديلاً صغيراً يمسح به شفتيه، جلس وقال لي بهدوء مشيراً إلى الديوان: اقرأ ...اقرأ .

بدأت أقرأ ... كلمات سليمان، وجه مالك... نهض الشاذلي ثانية مصراً أن يذهب لطبيب، لكن مالك رفض وطلب منه أن يجلس ثم أشار لي أن أتابع. عاودت القراءة، كل كلمة أقرؤها... تقابلها قطرة دم تنزف من شفتيه، تكاثفت القطرات في خطوط قانية تحدّرت على ذقنه، توقّفت، نهضنا كان عليه أن يراجع طبيباً، مشى ببطء وانكسار، ثمة وحشة قديمة تكمد وجهه،إنه هنا في بلده وبين أهله، لكنه أبداً في غربة وعلى سفر دائم.

لا أدري منذ متى وأنا في هذه المدينة، ربما منذ زمن، زمن بعيد لا يعد بالأيام ولا بالشهور والسنين.

* * *

البطل في وقفته الأخيرة

برز بين ثلّة من جنوده، ممتطياً حصانه، مشرعاً سيفه مجتثاً الأثير ومرسلاً نظرة حادة شمَّاء ماسحاً بها أسطح الأبنية المقابلة، شاخصاً إلى ذؤابة الجبل الذي يحتضن المدينة.

هنا ولد في صباح بارد، يعتلي لحمة من الأجساد المتراصة هرمية التشكيل تلتفُّ حول حصانه الجامح الصاهل كأن الجميع قد جمدوا في خضّم المعركة، فمن يحيطه من جنود (ربما قادة) احترسوا مترجلين بانثناءات قتالية، مسلَّحين بالسيوف والرماح يمحّصون بعيونهم الاتجاهات ويطعنون الفراغ باستحكام، مخلفين أسيرين مكبلين بأصفاد ثقيلة منكسين رأسيهما لُوّن الجميع بلون طحلبي دلالة على مرور الزمن، وهذا خطأ النحات الوحيد على رأي المحافظ، كان عليه أن يلون القائد بلون مغاير.

تستطيع رؤيته إذ قدمت من ثلاث جهات، من الشمال سيواجهك تماماً، من الغرب والشرق ستراه بشكل جانبي موارب، سيلوح واقفاً بشموخ اقترب .. ستخطر لك عدة احتمالات،

متسائلاً من يكون..؟ فهذا البطل ككل أبطال التاريخ الذين نرى صورهم المتخيَّلة في الكتب المدرسية له نفس الهيئة، اقترب أكثر واقرأ ما كتب على قاعدته، ستتساقط الاحتمالات ليبقى أن يشبه التمثال صاحبه.

هذا ما أراده محافظ المدينة، بعد أن اطلّع على العمل في ترميم القلعة، لفتت نظره الفسحة الخالية أمامها وإلى الشمال قليلاً. قلَّص عينيه بنظرة نافذة ثم قال ويده تتحرك حركة دائرية: يجب أن نملأ هذه المساحة... سنضع هنا تمثالاً لبطل، سنختار من كان له علاقة بالقلعة.

رسم أشهر نحاتي المدينة كليشهات ومخططات تبلور ما يريد عمله، وانتهى إلى أنه سيجّسد البطل في تمثال شامخاً ملخصاً معاركه خارجاً من حواشي الكتب وركام السنين مستحضراً نصراً مضى، توقّف وفكَّر: النصر يعني معركة والبطل لا يمكن أن يكون وحيداً حتى في نومه.

أصابعه الرشيقة عملت في الكتلة الصلصالية أياماً طويلة حتى تمايزت واكتسبت معنى وإيحاءً يعادل الروح، ثم دخلت في طور الجبس، لتخلص إلى قوالب صب فيها البرونز مشكلاً التمثال ليس كما تخيله تماماً فالصلصال تمرّد على ما أراده في أوقات عدة، وكأنه يحاول أن يتملص من يديه ليمضي في صيرورته

الخاصة، حدث هذا سابقاً في أعمال أخرى، حيث بدأ بتنفيذ فكرة ما لتتحول أثناء العمل، تنفلت وتنتهي إلى شكل لم يتخيله.

نهض النصب في وجوه ألوف العابرين بعيونهم المختلفة بعضهم أحسّ بتغيير ما حدث في الشارع، تغيير يشبه إحداث موقف باص جديد أو إنشاء كشك أو سبيل ماء، آخرون بدون اكتراث ألقوا نظرة عابرة وسريعة، كانت رؤوسهم مترعة بهموم الحياة وأجسادهم منهكة لذلك ليس لديهم متّسع للتأمل وتلمّس جمال ما حولهم (ماذا يفيد ذلك..؟) هو أهم سؤال عندهم. هناك من توقّف وتأملّه بإعجاب، ومن حاول استحضار ما علق في ذاكرته عن هذا البطل مقرناً ذلك برائحة الطباعة للكتب المدرسية الجديدة، وأشكال معلمين مروا في حياته، وصور مرسومة مبهمة لأبطال متخيلين.

توقف جندي جائع كان يعبر نحو السوق المسقوف، اقترب من النصب هجّأ ما كتب على قاعدته، نظر إلى سيف البطل والرماح، زرد الحديد والترس، تحسس صدره وعنقه وفكّر: لقد كانت الحرب قديماً صعبة ومرعبة، اعترته قشعريرة من تلقّى طعنة فانتفض ومضى مبتعداً، كاد يصطدم بمدرس تاريخ متقاعد اعتاد أن يقوم بجولة من وقت لآخر وهي نشاطه الوحيد يزور خلالها أوابد المدينة وحاراتها القديمة، دنا من النصب ثم

بدأ يعاينه، لبرهة حسب نفســه يتقهقر عبر التاريخ سبعمئه وخمسين عاماً.

صرخ: بوركت أيها البطل. كان على البطل أن يلتفت ويقول: بارك الله بهذه الأمة يا أخي، لكنه لم ينطق أو يتحرّك، قال لنفسه بصوت عال: يا رب الناس كأنه الوثاب بشحمه ولحمه، دار حول النصب، تأمّل البطل والجنود الثلاثة (ربما قادة) السيوف والرماح المشرعة، الأجساد الصلدة، هز رأسه قائلاً: لكنه يبدو أكثر ضخامة، إنها الثياب السميكة هي ما يخفي رشاقته، رفع صوته وكأنه في صف مدرسي: هذه الحركة من معركة الورقاء التي وقعت عام خمسمئه وخمسين لعشر بقين من ذي الحجة، حيث انتصر فيها على الغزاة المنحدرين من الهضاب الشمالية، والذين كانوا يحملون سيوفاً عريضة النصال وثقيلة وتروساً تقارب قامة الرجل، ويعتمرون خوذا بقرنين.

قال ذلك وهو ينظر إلى طفل وقف بجانبه ممسكاً بيد أبيه ثم مضى بتثاقل عاقداً يديه خلف ظهره.

حثّ الرجل ولده على المشي دون جدوى، فقد حرن وبدأ يبكي، أذعن لرغبته وتوقّف، ليتفرّج معه على النصب.

توقف الطفل عن البكاء ثم سأل..؟

- ما هــذا ..؟

- إنه بطـــل.

- لماذا يركب على الحصان..؟

- هو ذاهب إلى الحرب.

- أشار إلى الجنود الثلاثة وسأل: وهؤلاء أين أحصنتهم..؟

- لم يرّد.

تضايق الولد ثم سأل: لم لا يتحرك.؟

- إنه تمثال.

- ما هو التمثال.؟

تململ الأب، ثم قال بنزق:

التمثال مثل اللعبة، لعبة كبيرة.

- أريد لعبة مثله.

امش ..امش، سأشتري لك لعبة... دبابة أو طيارة، تعمل على البطارية.

همهم الطفل، مضى وهو يتلفَّت، صمت بدهشة عندما رأى عجوزاً بعينين وادعتين ينظر إليه، هو درويش أصبح يستظل شموخ البطل، السيوف والرماح وكتلة الأجساد النازعة إلى التقدم، كل يوم يأوي إلى النصب مساءً، أحياناً يبقى في حماه طوال النهار يتحرك حوله عكس حركة الشمس ملاحقاً ظله، حلف بكل مقدّس وبالقطب الرافعي أن البطل يعود كل مساء إلى

القلعة ليبيت فيها يرافقه جنديان (من المحتمل أنهما قائدان) ينفصلان عن النصب ويبقى آخران يحرسان الأسيرين وقال: كنت أسمع وقع سنابك حصانه وصاح: حي.....حي ....حي.

وأكد أن هيئته تتقلب من الهّم إلى الفرح، من الغضب إلى الرضا، لكنه دائماً يرى طيف ابتسامة غابرة عندما ينظر إلى وجهه، هو الوحيد الذي يمكنه رؤية الابتسامات الخفية وبدأ يقهقه بصوت عال ويتقافز صائحاً ومهللاً.

الصورة الأولى للتمثال البطل كانت حين أسفر عنه غطاء كان قد دُثّر به ليرفعه المحافظ مدشناً إياه، لكن تلك الصورة لم تكف، فقد قدمت بعثة تلفزيونية مكّونة من مصورين ومخرج، حاولوا إظهار النصب بشكل حيوي، فالمخرج كان ينتقل من زاوية لأخرى، مشرئباً تارة ومحنياً قامته ثم طأطأ رأسه ونظر إلى حافر الحصان وكأنه يتأكد من حدوته، بدأ يلقي تعليماته ويصرخ ليبعد الناس ويطلب من المصورين: خذ كادر من هنا، زوم، كلوس أب على الوجه، وقف أمام النصب وأشار بيده من تحت لفوق بشكل منحن يظهر شموخ البطل وصاح: لقطة بهذه الزاوية، ابتسم أخيراً وقال: ستوب يكفي. لكنه ما لبث أن انتفض صائحاً: إلى هنا.. إلى هنا.. صوروا الأسيرين، زوم على الأغلال .

عرضت لقطات كثيرة مما صور ترافقت مع موسيقا تاريخية رخيمة، في برنامج (صباح الخير يا وطني) و(الأوابد

تحكي تاريخاً) الذي أدمن على مشاهدته كبير تجار السوق العتيق، ذلك ليقينه أن جدّه الأعظم شهبندر أسواق الأمة في عهد الخليفة الحاذق لا بد أن يظهر في إحدى حلقاته لما له من فضل في تنشيط التجارة مع العرق الأصفر وشعوب المناطق الباردة، حيث كان أول من صدَّر لهم لحوم النوق وحليبها وجلود الجمال وعنبر الغزال الصحراوي، الرماح الثقيفية والسيوف الدمشقية واستورد منهم الكاغد وعبوات أدوية صغيرة تشفي الحمى وتبرئ الجروح وتطّيب العنين، تقوي الباه وتعيد الشيخ إلى صباه ويقال أنه تزوج امرأة هناك وخلف منها أولاداً أصبحوا أمـــراء.

قصد النصب وعاينه كما يفعل بسلعة، قال في نفسه: رحم الله جدي لن يذكره أحد، وتأتت له فكرة فهرع إلى متجره، اتصل بأحد مقلدي التماثيل ممن يستخدمون الجبس في ذلك وطلب منه صنع نسخة صغيرة من النصب ليضعها في باب متجره، كما أمر العاملين بالمتجر بلبس زي مشابه لزي البطل واشترى ثلاثة سيوف دمشقية لهم وله سيفاً مرصعاً بالجواهر، وأعطى تعليمات حازمة بأن يتقلد كل عامل سيفاً وأن يقدموا من وقت لآخر فقرة مبارزة كلوحة حيّة ورمز لما جرى في التاريخ من قبل هذا البطل الذي طعن من الأعداء ما لا يعد، ويطعن

الآن الفراغ المرّكب من زفير مدينة مكتظة ودخان عوادم سيارات قديمة متهالكة وحديثة نزقة ومغرورة.

كل ذلك لجذب الزبائن الذين سئموا من الدعاية التقليدية وليعلي من الأصالة الوطنية، واحتراماً لبطولة هذا القائد الذي تفتّح الناس علي قيمته الكبيرة وفضائله الغامرة كما قال الخطباء على كل المنابر، فقد دعا كبيرهم وهو خطيب مشهود وفقيه بحجة راجحة إلى تمثّل أخلاق هذا التمثال (قالها هكذا) وهو يقصد البطل طبعاً وكأنه لا فرق، والاقتداء به في العلم والدين والجهاد وكررها ثلاثاً وطعن بيده العارية الفضاء فوق رؤوس الحاضرين ثم انهار مغشياً عليه.

لم يكتف بالخطبة، فبعد أن وعى من إغمائه شرع يكتب بحثاً عن معركة وادي الدلم التي انتصر فيها على همج شعوب ما وراء النهر، وقد فنّد فيه ما كتبه باحث آخر، حيث ذكر أن البطل حشد جيشه في موجة عاتية اجتاحت جيش العدو واعتمد تكتيك الشرزمة والإطباق في مضيق الزلعوم. أما المنجنيق فقد استخدمه في معركة الوادي العميق.

كل هذا والبطل ثابت في وقفته وكأنه لم يكن غير هذا ولن يكون، هي ليست وقفة كاملة بل كان على شفا التحرك في لحظة

انتقال بين ما مضى وما هو قادم، هذا ما أصرّ عليه مخرج سينمائي في فيلم أنجزه عن البطل مستعيداً حياته بالكامل، لعب دور البطولة التمثال ذاته بعد أن صوره المخرج وفصله عن الجنود والأسرى باعثاً فيه الحياة باستخدام تقنيات الكومبيوتر، بدا الوثاب في الفيلم حقيقياً بعد أن شحنه بحيوية فذّة وكساه بأردية مناسبة، وقد حرص المخرج على إظهار جانباً من إنسانيته وحياته الخاصة، فظهر عكس ما هو في المعارك رؤوفاً رقيقاً أبعد عن المجون أو الشدة النزقة الخالية من الرشد، وقد تفوق في هذا الفيلم على ممثل مشهور قام بدور الوثاب سابقاً في فيلم قديم، كان أداؤه أقرب للحيادية، بارداً وخال من الانفعال لم يقتصر الأمر على السينما بل انتقل إلى التلفزيون فظهر الوثّاب في مسلسلين تلفزيون ولكن بشكل مختلف وهذا لا يضر على رأي أحد النقاد فلكل رؤيته، المهم أن يبقى البطل بطلاً حتى في الدراما.

ما بقي أحد لم يعرف الوثّاب، فمن لم يعرفه في الكتب عرفه في السينما أو التلفزيون وفي خطب وكلمات المسؤولين، إذ لم تخل خطبة ولا كلمة أدلى بها مسؤول من ذكر له وخاصة دوره العظيم في تحرير الأمة، هو واقف تلك الوقفة المتوترة على شفا التحرك، تومض فلاشات الكاميرات عليه، فلا يرّف له جفن، ما يزعجه فقط هو رائحة النشادر التي تنبعث من خلفه

وتراكم الأوساخ من مخلفات مأكولات سريعة وأغلفة نايلونية وورقية يرميها الناس في حرمه ليس استصغاراً (ما عاذ الله) بل بحكم العادة وبشيء من المونة، رغم أن عمال النظافة لم يتوانوا عن تنظيف ذلك الحرم يومياً.

في الذكرى المئوية الثامنة لمعركة وادي الدلم جرى احتفال ضخم، كانوا قد هيئوا له على مدى ستة أشهر، سبقه نشاطات ثقافية وإعلامية، توزعت صور التمثال البطل في أنحاء المدينة في مداخلها على جدرانها وأعمدتها، على سياراتها وواجهات محالها التجارية، بتلك النظرة الثابتة أبداً وتلك الوقفة الراهنة بين حركتين، طغى ذكره على أي شيء في المدينة. اختتم الاحتفال بمهرجان جهرت الأصوات فيه بخطب بليغة، عبرت التاريخ صالت وجالت في تداعيات الأحداث، مستعرضة مناقب البطل ومآثره وأجمعت كلها على أن من خلفّ لم يمت منتقلة بذلك لذكر بطولة زعماء هذا الزمان.

تتالت مهرجانات وسنوات ليدخل التمثال البطل طور الاعتياد، ويصبح اسماً لمكان مثل شارع الحمرا أو النصر أو ساحة الحرية، معلم من معالم المدينة التي جردت من خصائصها لتلتصق بها خصائص المكان بتكوينه الجغرافي وبما يحويه من متاجر وشوارع وحدائق، هذا ما أصبح عليه التمثال البطل عنوان لمكان،

عنوان فقط، وهو كغيره أصابه الإهمال واعتراه الكمود، بدا وكأنه شاخ وترسبت عليه آثار السنين.

عقب تهديدات متكررة بدأت جيوش غريبة تتجه شرقاً وجنوباً محمولةً على بوارج وعربات، جَعْجَعَ في سماء المدنية دوي طائرات متفاوتة العلو، أهل المدينة تابعوا ذلك بقلق على الشاشات، التلفزيون الوطني والإذاعة شرعا يبثا الأغاني الحماسية مع صور للتمثال البطل ولقلعة المدينة، مما أيقظ في النفوس ذلك الشعور المتوارث تجاه غزاة الشمال، احتقنوا بالغضب نهضوا واتجهوا إلى التمثال البطل احتشدوا خلفه وحوله شاهرين أسلحة غريبة من السيوف والرماح، السكاكين والفؤوس والمناجل والبنادق العتيقة، كانوا يهزونها بحماس وحميّة، وهم على يقين أن التمثال البطل سيتم حركة حصانه المعلقة بقفزة واسعة وينطلق عاتياً كإعصار ليتصدى للأعداء.

عبرت مركبات لامعة بانخفاض متوسط سريعة كالومض فوقهم، أُطلقت طلقات بائسة من المحتشدين، تبعها دوي لقنابل وطلقات أشّد، أطلقت من محيط المدينة لم تخلف سوى خيوط دخانية واهية.

هدير الآليات الضخمة تناهي من بعيد وبدأ يقترب، اهتزت المدينة على دوي هائل، تبعه آخر وآخر، تناثرت أشلاء وحطام

اشتعلت حرائق وتصاعد دخان أسود، ثم عولت سيارات إسعاف وإطفاء، انفرط الحشد بذعر، هرعوا إلى ملاجئهم، فرغت الشوارع، و(البطل) التمثال مع جنوده (ربما قادة) على وقفته شامخاً نازعاً لهجوم فات زمنه، يهتّز مع كل انفجار تساقط عليه نثار الحطام، انخلع السيف من يده، ضربت شظّية وجهه مفتتةً ملامحه، غير أنه بقي واقفاً صامداً مع جنوده تلفهم غلالة رمادية.

* * *

أغنية أولى.. أغنية أخيرة

ربما تعرفونه.... حاولوا أن تتذكروا.... الرجل النحيل الذي يتوسّط كورس الرجال في الأغنيات القديمة المصوّرة بالأبيض والأسود، دائماً يقف في الوسط، لا تعرفون اسمه.! لا يهم، ومن سيهتم باسم مغني الكورس...؟

على مشارف الظل وقفوا، ثلاثة رجال وامرأتان، الوسط بين الرجال ظل صامتاً كأنه وحيد في مسرح فارغ، حدث أن فعل ذلك مرتين، قد يكون الشرود، إنها الوقفة الأخيرة له في الكورس هذا المساء، نوى ذلك بعد أن تلبّسته حالة يشعر فيها أنه على وشك أن يتَّم التحوّل إلى ببغاء.

ليس لببغاء أن يغني، ذلك أصبح مستحيلاً، أن يقف كمطرب ويقدَّمه عريف حفل ولو لمرّة واحدة... مرّة واحد فقط. لاحظ أنه يتحوّل إلى ببغاء واكتشف أنه بدأ ذلك منذ زمن، غير أنه كان في غفلة عن الأمر، ربما لأنه عبر درجات التحول بتسليم وعلى مدى طويل.. لكنه لم يصبح ببغاءً كاملاً فلا ريش له ولا جناحين. وعندما ينطق لا يلوي عنقه، وما زال يتنقل على قدمين.

نظر في المرآة فنظر إليه شخص آخر لم يعرفه، قال: أنا أشبهك. ضحك .. ضحك الآخر، توقّف وقال بعينيه: سأصبح ببغاءً. أحسّ بأنّه حرّك شفتيه بما لفظه، أردف : ببغاء شاحب، سمع صوته الغريب يردد: ببغاء شاحب، ربما كان يهذي لكنه اقتنع بما قالته ابنته في فلتة لسان كما ادّعت بأنه مثل الببغاء. لاحظ التغييرات التي اعترته، خداه أصبحا ممصوصين ووجهه أقرب للتحدب، ذقنه استدقت وشعره حال لونه إلى الصفرة، أما جسده فقد انسحب آخذاً شكل المغزل. لم يبق له الكثير ليكمل تحوّله رغم أن في نفسه إحساس من أكمل هذا التحوّل منذ سنوات.

هو الآن على وشك الدخول في الطور الأخير، طور الريش بادئاً بالزغب، يرافقه تقوّس الظهر والتقلّص إلى حد أنه قد لا يرى أطرافه يوماً.

لن يظهر في كورس ثانيةً، سترونه فقط في الأغاني التي يعاد عرضها، ربما يعود شخصاً عادياً وينهي ذلك التحوّل مسترجعاً فعل الكلام، بعد كل هذه السنوات التي كل ما كان يفعله خلالها أن يردد وهو يعتقد بأنه يتعلم، لكن ماذا تعلّم من ترديد مقطع أو مقطعين من كل أغنية.......؟ ملحم بركات نفسه قال أنه عندما كان في كورس الرحابنة لم يتعلّم منهم سوى التدخين..!

ماذا تعلّم منذ انتسب إلى كورس الإذاعة...؟ ممتثلاً لحلم سارت حياته بموازاته، حلم لم يقاربه بل ظلّ على مسافة واحدة منه تحت النظر وليس بمتناول اليد.

ما السحر الذي خلبه في الغناء..؟ أمّه كانت تقول أنه كان يهلّل ويحرّك يديه كجناحين ويبتسم عندما يسمع أغنية فرحة من المذياع القديم، أما عندما تغنّي هي له فقد ينظر إليه بصفاء غريب، وكان يبكي عند سماع الناي، هل هي كرما ..أم توقّع لما سيأتي..؟

نشوة الغناء كثيراً ما أخذته إلى درجة أوشك بها أن يكمل الأغنية خارجاً من إسار الكورس، لكن شجاعته لم تسعفه في ذلك، لم يكن يفكّر بتفسير الأغاني، وجد... خيبة وحزن، رضا وفرح، صبوة وركون، واحدة فقط هي كل هذا تلك التي تحالفت مع عيني سعاد عندما رآها لأول مرة. كان في الكورس مع ثلاثة من المغنين وكانت تجلس في منتصف الصف الثاني، هادئة ومتألقة، عيناها عقيقتان تلهو عليهما قطرتا ندى، معلقتان بالمطرب، لم تنتبه إليه، فمن سينظر إلى مغني كورس إلا بشكل سريع وعرضي..؟

سعاد أجمل ما ناله من عمله كمغني كورس، هي أغنيه بلا كلمات ولا موسيقا، تصدح بها الروح ويضجّ بها الجسد.

في لحظة مفاجئه أطبق عليها السكون وتركته، بعدما عاش وإياها حلم طموحه ومرارة تبدده، كثراً ما قالت له أنه يردّد في نومه، كان يسألها هل يغنّي أغنية معينة..؟ فتجيب: لا.....لا تغمم بعدة كلمات فقط، قد تكون هذه هي بوادر التحول الذي أصابه.

مقاطع، اليوم سيردّدها لآخر مرة، قالوا له أن المغني أفضل مطربي الجيل الحالي وهو سيؤدي أغاني طرب لمطربين قدامى، ويحتاجون كورساً يتقن هذه الأغاني وصوتاً عريضاً (باص) لذا رجوه أن يحضر، رفيقاه في الكورس صديقان عتيقان، أراد التوقّف منذ سنوات، قالا له: نحن نريد ذلك أيضاً ولكن ماذا سنعمل.؟ تجاوزنا الخمسين، لا وظيفة تقبلنا ولا مال عندنا وفات الوقت الذي يمكننا فيه عمل ما رفضناه سابقاً أي مطربي أعراس وحفلات طهور وكابريهات، علينا أن نؤمّن عيشنا، فكّر قبل أن تقدم على أي خطوة.

سئم كل شيء، أقفية المطربين التي حفظها وأصبح قادراً على تمييزها كوجوههم، جمهور هذا الزمان، والأغاني بكلماتها التافهة. كان في كورس مطربين عديدين، صباح فخري، ياسين محمود، رفيق شكري، كروان، صباح، سميرة توفيق، حنان، نجيب السرّاج، سمير حلمي، فؤاد غازي، موفق بهجت، ومن كان يأتي إلى هنا بدون فرقته، وديع الصافي، نصري شمس

الدين، كارم محمود، محمد رشدي. أحبَّ أغاني ذلك الزمان وأدّى بعضها بمتعة أما أغاني هؤلاء..!

لكن ما هو دوره..؟ أهو ظل المطرب وصدى لصوته أم خلفية للأغنية كما هو للمكان.؟ أو هو آلة مثل أي آلة موسيقية مبرمجة لتؤدي مقطعاً ما في لحظة معروفة...؟

دائماً يظهر في لقطات عارضة وراء المطرب كأي جزء من الديكور، كم تمنّى لو أن صحفياً أجرى لقاءً مع أحد مغني الكورس ولو لمرة واحدة فقط أو مقابلة تلفزيونية مهما تكن قصيرة، لكن هذا لم يحدث.

أولاده سيفرحون بتوقّفه، فقد أصبحوا يخجلون من ظهوره وراء المغنيين، ابنته معلمة المدرسة أفصحت عن ذلك بقولها: بابا يجب أن تتوقف، يكفيك الوقوف لتردّد مثل الببغاء، صورك في التلفزيون من أيام الأبيض والأسود، مطربون عديدون ممن رددت وراءهم توقفوا، أكثر من مرة سمعت الناس يقولون عنك: انظروا إلى ذلك العجوز في الكورس لقد بدأ الغناء وراء الحمولي وما زال، ويقهقهون. فكر أن يقول لها، وأنت ألا ترددين وراء غيرك نفس الدرس في كل سنة وكل صف ونفس المنهج والتلاميذ يردّدون وراءك، من ألفّ هذه الكتب؟ أهو أنت ؟ أنت وأنا والأغلبية نردد وقلة الذين يغنّون. لم يحلم أن يردد وراءه أحد فقط،

كان يتمنى أن يغني أغنية خاصة به بقدمها عريف حفل أو مذيع بصوته الجهوري ويقول: نبقى الآن مع أغنية للمطرب...

ابنته هشمت تلك المكابرة الذي كان يتدرأ بها ونبشت في نفسه ما واراه من الحزن والخيبة، هو ذاته كان يبحث عن وصف يلائم الكورس، ببغاء..... نعم ببغاء مهما بلغ من مستوى فني. انزوى في غرفته ولم يكلّم أحداً.

يوماً بعد يوم أصبح قليل الكلام، يستمع ويرّد باقتضاب على ما يخصه فقط، هل عمله جعله كذلك..؟

العديد من المطربين انطلقوا من الكورس، محمد أمين، جورجيت صايغ، مروان محفوض، سعدون جابر. حاول أن يفعل ذلك، ولكن لا حظّ له، لم يعطه أحد لحناً، قالوا ما زلت بحاجة للتدريب وصوتك ليس فيه شيء خاص، ما هو.. لا يدري..؟ أخر قال ليس لديك كاريزما.! سعاد ظلت سنوات تسأله متى ستبدأ، متى ستصبح مطرباً..؟ ثم صمتت ولم تعد تسأله أبداً.

مساء اليوم سينتهي كل شيء ولكن هل سيعود كما كان منذ ثلاثين عاماً..؟ لن يسعفه الوقت ليحلم من جديد، فقط يريد أن يعيش بهدوء، سيذهب إلى المقهى ويحتسي مشروباً باسترخاء ويشعر بأنه حر، يقرأ جريدة أو يتمشى في الشوارع أو...

سيبدأ الحفل في السابعة، يعرف المكان، غنّى فيه من زمن بعيد، أغلق فترة من الزمن لتحديثه، كان يصطحب سعاد إلى حفلات هناك.

فور وصوله ألقى نظرة على الصالة، أزاح الستارة قليلاً، المكان هو نفسه، هناك تغيير في الديكور وفي توّضع المقاعد، خشبة المسرح وسعت قليلاً مع بهرجة في الإضاءة، ربما هذا ما يقتضيه العصر، في كل ما حوله رغبة عارمة بالإبهار مما يجعل الأشياء كأنها مقحمة وتتجاوز الوضوح، الفضاء ضاق قليلاً قد يكون تقدمه في العمر هو ما جعله يراه كذلك فعندما نكبر تتكمش الفراغات حولنا ويتّسع فراغ في داخلنا.

تصاعد لغط من مدرج المسرح، تحوّل إلى جَلبة من يبحثون عن أماكنهم، الفرقة الموسيقية أخذت مكانها، أورغ كهربائي وعود، طبلة واوكورديون، كمان وبزق، الكورس التزم الزاوية المخصصة له، امرأتان وثلاثة رجال تقصفت أحلامهم عام بعد عام.

لم يأت المغني، تجاوزت الساعة موعد بدء الحفل. عازف الأورغ بدأ يعزف منفرداً ألحاناً مشهورة ليسلّي الجمهور كعادته أشعل سيجارة ووضعها في فمه وبدأت أصابعه تتقافز على المفاتيح برشاقة، يعرف هذا الرجل منذ زمن بعيد صادفه في حفلات عدة، كلماته قليلة وتعزٌّ عليه الابتسامة، لو يسمحوا لهم

أن يفعلوا مثله، يغنّوا ريثما يصل المطرب. فيما مضى كان عازفاً للبزق في تخت شرقي لكنه تحوّل إلى الأورغ ليعيش، لم يتخَّل عن ذوقه الرفيع هذا واضح من الأغاني التي اختارها، لم تكن عليه سيماء الببغاء، تهيأ له أن شكله بشعره الفاحم المصبوغ كهزار عجوز يتأسى على زمان مضى.

الكرسي الذي كانت تجلس عليه سعاد، الأول في الصف الثاني من ناحية الباب، شغلته صبيّة صغيرة وجميلة، لا تشبه سعاد، عينا سعاد كانتا سوداوين تستقطبان الروح.

أتى أخيراً، نهضوا، عازف الأورغ غبّ من سيجارته نفساً عميقاً، العازفون الآخرون احتضنوا آلاتهم، بدأت الأضواء تتبدّل انصبّ ضوء ساطع وسط الخشبة في الزاوية اليمينيه منها أحاطت دائرة مضيئة بشخص هو عريف الحفل قدّمه بكلام منمق: ملك الطرب، نجم النجوم. في الوقت الذي كان فيه المطرب يصعد خمس درجات من يمين الخشبة المعتم ليلاقي دفق الضوء، هاج الجمهور وماج، اشتّد التصفيق والصفير ونهض الجميع وشرعت الأيدي تلوّح ثم عمّ الضوء الخشبة فشملهم، انحنى المطرب ثم استقام، مشى خطوتين وانحنى من جديد ومشى وانحنى حتى وصل آخر الخشبة ثم عاد وهو يكرج على كعبيه ويتراقص مثل عارضات الأزياء.

استدار نحوهم نفّذ ابتسامة مبرمجة، ثم خطا خطوات قليلة، تناول الميكروفون أمسكه برؤوس أصابعه كأنه شيء هش يخشى أن يحطّمه أو أنه مخيف أو ملوّث همس كلمتين لعازف الأورغ الذي بدأ بمقدمة موسيقية قصيرة ثم بدأ بعدها بموسيقا أول أغنية، قرّب الميكروفون من فمه ثم صاح بنعومة: وهيييه.... يلاّ سوى، دار على نفسه وكرج إلى مقدمة الخشبة ثم تراجع قليلاً ووضع الميكروفون تحت إبطه وبدأ التصفيق ولع الجمهور، أمسكه ولفظ كلمتين من الأغنية ثم وجّهه إلى الجمهور فبدأ يردد وراءه بصوت رخو مهلهل كشّلال يتساقط على صخور متدّرجة، يغني كلمتين والجمهور يكمل وهم لا دور لهم، تنحنحوا مرّات عدة وحاولوا، بدؤوا بمطلع غير أن صوتهم ضاع في صخب الجمهور فصمتوا وهم يمسحون عرقهم وينقلون ثقل أجسادهم من رجل لأخرى يتفرّجون على هذا الجمهور الذي يشبه طلاب ابتدائي يردّدون نشيداً وراء المعلم.

انتهت الأغنية الأولى هكذا، بدأت موسيقا الثانية والمغني يذهب ويجيء ويستجدي الجمهور الذي يبدو وكأنه ملّ من التجاوب معه، الكورس ردّد المطلوب منه لكن هو لم ينبس بكلمة، نبهه أبو سامي وبقي صامتاً.

المقدّمة الموسيقية للأغنية الثالثة أخرجته عن طور الصمت، إنها أغنية (رمش عينو) لمحرم فؤاد والتي كان في كورسها يوماً

من بداياته، عاشت في نفسه كل هذه السنوات ضنينة وعصيّة على النسيان، مترافقة مع رؤيته لسعاد، مع عينيها وروحها، طالما تمنّى أن يغنّيها منفرداً.

ذلك العشق الذي أضحى حنيناً وحسرة وكل الحزن والخيبة التي ملأت نفسه فارت دفعة واحدة، كيف لمغني لا يحسّ بما يغنيه أن يؤدي هذه الأغنية...؟ ربما يفصمها إلى أهزوجة أو إيقاعية راقصة، مبدداً جمالها في سعار الرقص والتصفيق.

وضع المغني الميكروفون تحت إبطه وبدأ يصفق ويتراقص، وهيبيه ويلّلا، ولع الجمهور، صمّم أن يترك الكورس، هل يغادر..؟ لا لن يفعلها اقترب من عازف الأورغ وهمس في أذنه: سأغنّي.. مهما حدث لا تتوقف، أومأ برأسه، تقدّم إلى الأمام ومن وراء المغني سحب الميكروفون فالتفت إلى الخلف، أشار هامساً: سنبدّل الميكروفون. هز رأسه بصلف وفتل على المسرح.

بدأ الغناء، نشب هرج ومرج، ضحكات وصفير، تعليقات: أيوه يا جدو.. هات طرب، دير بالك لتفرط... لم يهتم، رأى سعاد في مقعدها المعتاد تبتسم وتصفّق، حاول المغني أن يستعيد الميكروفون لكني استدار زائغاً منه متشبّثاً به، سمع تصفيقاً وضحكات، فصل الميكروفون لحظات لكنه لم يتوّقف، أحسّ بصوته قوياً قادراً أن يملأ فضاء المدينة، وصل الميكروفون من

جديد، نسي كل شيء وعاد إلى البدايات، غنّى كما في أحلامه بإحساس تكاثف ثلاثين عاماً.

انتهت الأغنية، ببرهة صمت كاللحظة الفاصلة بين الشهيق والزفير، ثم خفق تصفيق بطيء ومنفرد انبعث من منتصف الصالة ليسري في أنحائها، دبّت قطرات عرق في ظهره وصدره، أضحى جسده لوحاً بارد، وكأنه وقف هكذا ثلاثين عاماً، عازف الأورغ كان يبتسم، تلفَّت حولي لم يجد المغنّي، رأى رجالاً على بابي الكواليس بعضهم متجهم وآخرون مازالت خطوطاً رسمها الضحك ماثلة على وجوههم. اقترب أبو سامي منه وقال: اخرج بسرعة.. هيّا... هيّا.

اتجه إلى الباب، اعترضه رجلان، أشار لهما رجل كبير أشيب فتنحيا، مضى معانداً رغبةً ملحة بالنظر إلى الوراء. في ذهنه تردّدت عبارة واحدة، لا يمكن لببغاء أن يفعل ذلك.. لا يمكن.

تقدم عريف الحفل قال بمرح فاقع: بعد هذه الفقرة الكوميدية، نعود إلى الطرب...انبعث صوته المغني وهو يخرج من الكواليس حاداً بحس ساخط : هلق جينا ...هيههههههه ويللا.. بدأت الموسيقا، رفع الميكروفون وكأنه علامة نصر، وانصبت دائرة الضوء عليه.

* * *

كتاب الأعمى

النسخة الأخيرة وجدها مهندس شاب يعمل مع فرقة الطوارئ، كان الأعمى يقبض عليها بتشنج داساً إياها في صدره.

بلا عنوان... فقط كتب على الصفحة الأولى منه بخط فارسي رخيم (كتاب) قد يكون للتأكيد أنه فعلاً كذلك، أو أن مضمونه الشامل فرض هذا التعريف، وبلا مؤلف، فلم ترد أية إشارة تفيد بذلك.

ضمت دفتاه صورةً عن مخطوط كتب بقلم النسخ في استعراض لجمالية الحرف، أورد المؤلف في مقدمته المختصرة ما دفعه لتأليفه وعدد السنوات التي قضاها في ذلك، مبيناً أن حالته كرجل ضرير لم تحل دون تدوين علومه وأفكاره، مستعيناً بناسخ، أصرّ على إبراز حذاقته ربما رغبة منه بأن يبز المؤلف.

جاء فيه توقعات عما سيأتي وتأسٍ على زمن مضى وذمّ لزمن حاضر، وفي فصول أخرى وردت حكايات وقصص يمكن تصنيفها في إطار أدب النصيحة، كما وردت استيهامات

إيروسية غريبة، وقصائد شعرية منوَّعة ومفككة تبتدع صوراً مصاغة بما يشبه الكولاج، وتضمَّن فصلاً كاملاً عن طب الأعشاب والحكمة الروحية، وآخر احتوى رموزاً وطلاسم ورسوماً هي خطوط متشابكة وملتفة بقلم رصاص تائه ومشوش يرجَّح أنه قلم الأعمى، وجاء على عدة صفحات تحذير مبهم عن زمن يكر إلى الوراء. ونبوءات شاملة يمكن إلباسها أفراداً وأمماً، إنه كتاب عجيب يشبه كتب العصر الموسوعي.

في ذلك اليوم وقت الضحى تصاعد نداء الأعمى: اشتروا هذا الكتاب... عجّلوا، ستقرؤون فيه ما حدث وما سيحدث اشتروا هذا الكتاب.. إنه من تأليفي الخاص... خذوه ربما لم يفت الأوان بعد.

هذا أمر معتاد، فهو يوماً بعد يوم أصبح من معالم المكان وصار نداؤه معتاداً كلازمة صوتية مثل أصوات الآليات ورنّات الخلوي المتناثرة في الفراغ، لغط الناس وأبواق سيارات الإسعاف والشرطة. لم يهتم به أحد من أهل المدينة فالكل مشغول، وحدهم الغرباء كانوا يجدونه طريفاً.

دار على نفسه نصف دورة، وكأنه يتوجّس شيئاً، كان يقف على الرصيف المقابل لأفخر وأكبر فنادق المدينة كعادته، يغطّي رأسه بكوفية بيضاء ويرتدي جلباباً قاتماً وسميكاً، يمدُّ يده بكتابه للحظات ومن ثم يرفعه ليداري به وجهه من شمس ملحة.

توقف رجل ثلاثيني، يرتدي بزّة كاكية بجانبه وسأله:

- هل أنت من ألفّ هذا الكتاب ..؟
- نعم. مدّ يده بالكتاب، خذ أتريد أن تقرأه..؟
- هل تضحك علينا.. كيف لأعمى مثلك أن يؤلف كتاباً..؟
- الفكر يحتاج لبصيرة وليس لبصر، ألم تسمع، بهوميروس، جون ميلتون، بالمعري.. طه حسين.. بورخيس.؟ اشتروا هذا الكتاب ..صرخ رافعاً رأسه ومشيحاً بوجهه.
- هه .. وهل هؤلاء عميان أيضاً.؟ هذا ما كان ينقصنا. قال الرجل بسخرية ومضى.

لم يبع من كتابه نسخاً كثيرة، فهناك من اشتراه بدافع الشفقة ولم يفتحه مطلقاً، آخرون اشتروه بدافع الفضول، منهم من قال أنه لا يعدو رواية خيالية رديئة، وأنه تهاويم رجل مجنون وطلاسم لا تفهم، قليلون قرؤوه بتمعّن وأصرّوا على قراءته مرة ثانية وقالوا أن فيه ما يخيف وما يفيد ويحرض على الانتباه.

على التقويم بدأ الشتاء منذ أسبوعين إلا أن الطقس خالف ذلك، فقد خيّم صحو مريب ومزعج وكأن دورة الفصول تبدّلت، الشمس بحدتها ومسارها كانت كشمس الصيف، والحرارة تقترب من معدل بدايات الخريف، كل هذا خلف ضيقاً وتخوفاً، في نفوس السكان، لا يمكن أن يمرّ هذا الطقس على خير، كانوا يرددون ذلك بخشية وترقّب.

وهذا ما حدث. ففي وقت لم يتجاوز الساعة نهضت ريح جنوبية حاملةً سديماً غبارياً، نثرته في صفاء الصحو أدى إلى انخفاض الرؤية، تكاثف شيئاً فشيئاً لتتلبد السماء بالغبش .

لم يتوّقع أحد أن يصل الأمر إلى هذا الحد فالمدينة اعتادت الرياح المغبّرة في أوقات معينة من السنة، لكن ليس لدرجة تقارب العماء، الناس الذين ظلوّا يمارسون أعمالهم ونشاطهم وفي ظنهم أن الأمر مجرد هبوب عابر وغبار طارئ، باغتهم التكاثف المحموم، فهرعوا ليحتموا منه، اصطدمت سيارات بأخرى وبالأبنية وصدمت المارة الذين ارتطموا ببعضهم وبما يحيطهم. الكلاب والقطط بلغت ذروة هياجها وقد بدأت تنبح وتموء منذ ساعات، عمّت المدينة نوبات من السعال الجاف والمحموم بعض العجائز والمرضى قضوا لتعكر تنفسهم بالغبار.

تعفّر وجه الأعمى، تكدّرت أنفاسه، أطبق فمه فصَّرت أسنانه على الذرات الدقيقة مصدرة صوت انسحاق ولد سيّالة من القشعريرة المستفزة تناهت في أعصابه، تلثّم بالكوفية التي كان يغطي بها رأسه، حمى بها فمه وأنفه ولاذ بمدخل أحد الأبنية، لكنه ما لبث أن خرج بخطوات وئيدة وحذرة، المدينة مصورة في رأسه كما رسمتها حواسه، استمر يصيح: اشتروا هذا الكتاب، إنه من تأليفي الخاص اشتروا هذا الكتاب .لتعلموا ما سيحدث وما سيحدث يحدث الآن.

تابع تجواله وكل عدة خطوات يكرر نداءه وكأنه ترنيمة رتيبة، يمشي ببطء، واصرار ويمّد يده بنسخه من الكتاب.

لم تنفع المصابيح، فقدرتها على اختراق سجف الغبار لم تتعد مترين، كانت الغريزة هي فقط ما يهتدى به، لكنها التبست بضعف الحواس، هذا أدّى إلى ارتباكات كثيرة، هناك من دخل بيتاً ليس بيته ومن تأبَّط ذراع امرأة غيره أو حمل طفلاً ليس طفله.

خرق هذا التشويش نداء تصدَّى في حارات المدينة القديمة ووسطها، كان واضحاً بصوت جهوري، لمناد كأنه نهض من مئة عام: يا هوه.... يا سامعين الصوت صبيحة زوجة الورداني ضيّعت عقد ألماس، من وجده وردّه له الأجر والثواب، وعطية مجزية من زوجها ومن وجده ولم يرده اللهم لا تجعل حيلته حيلة ولا فتيلته فتيلة غيره، كرر النداء ثلاث مرات، لم يكن الصوت قوياً لكنه كان واضحاً لكل من سمعه.

منذ خمسين عاماً لم تسمع المدينة نداءً كهذا، تلك كانت عادة قديمة يوم كانت المدينة محصورة بأسوارها، لكن من سيبحث عن عقد ضائع في هذا الظرف، الغريب أن هناك من شرع بالبحث مطأطأً قامته متلمّساً ما حوله كأعمى.

لم يكن الغبار ما يزعج فقط، بل تلك الرطوبة والحرارة التي تجعل المرء يمقت ثيابه وجلده، فالسديم كان يسفع الكائنات والأشياء، يلتصق بالوجوه والأيدي بلزوجة حارة.

عوت صفارات الإنذار وبدأت أبواقُ سيارات الإسعاف والطوارئ تنوح وتزعق، إلا أنها لم تقطع سوى مسافة قصيرة ليعلن سائقوها أن ذلك مستحيل، فالأنوار المخصصة للضباب تبدّدت في السديم الغباري.

صمتت الأبواق لتشرع أصوات بشرية بإرشاد أهالي المدينة: خذوا طرقكم إلى منازلكم، لا تلجوا وسيروا على مهل كي لا يدوس بعضكم بعضاً، أغلقوا الأبواب والنوافذ، غطوا أوعية الطعام والماء. على المرضى، خاصة مرضى الحالات التنفسية مراجعة المشافي بأي طريقة لكي يحصلوا على الأوكسجين.

علا تلك الأصوات صوت مبتهل انبعث من جامع المدينة القديم، بدأ بآية قرآنية ثم بدأ يعظ، أيها الناس: إنه عقاب الله وإنذاره على فساد استفحل، أيها الناس إنها عاقبة من استخف بمن استمهل، كما عاقب الله الكفار بالطوفان وكانت سفينة نوح منجاة المؤمن، هاهو يعاقب كفار اليوم بالغبار، لا منجاة لكم سوى التمسك بإيمانكم، أيها الناس .. قطع صوت المنادي نوبة سعال حاد ثم صمت.

حركة الغبار اللولبية أتاحت له الدخول إلى أدق الأماكن، وكأن هناك من يسوقه، تعطلت أجهزة كثيرة، تشوَّش البث

الإذاعي والتلفزيوني وشبكات الخلوي، لتصل تلك التعليمات التي كانت تبث عبرهما متقطعة غير مفهومة. أغمضوا عيونكم و... ضعوا قطناً في آذانكم ... ابقوا في الغرف الداخلية ...

لا تشربوا بالكؤوس، ضعوا شفاهكم على فوهات زجاجات الماء واشربوا.. انقطع البث فجأة فقد غصّت الدارات الإلكترونية بذرات الغبار الدقيقة

تلاشت الأصوات، بقي صوت الأعمى الخفيض وصوت المنادي، الذي عاد معلناً يا سامعين الصوت: صلوا على النبي .. الحاكم وقائد الشرطة سيقومان بجولة على المدينة، دوريات الأمن منتشرة في كل مكان، حافظوا على هدوئكم فأولاد الحرام واللصوص قد يستغلون هذا الظرف، لكن لا تخافوا فالشرطة لهم بالمرصاد.

حاكم المدينة، حاول الخروج لتفقد ما يجري لكنه انكفأ عائداً واحتمى مع أعضاء مجلسه في غرفة داخلية مزججة مجهزة للطوارئ، من تلك الغرفة حاول التعامل مع واقع الحال غير أنه لم يستطع فعل شيء سوى مراقبة الحركة الغريبة لذرات الغبار، قال: شيء غريب .. كأن فيها روح أو أن هناك من يدفعها، تراءت له أطياف وجوه ترتسم في تلافيف الغبار، وجوه أعداء

يهاجمونه، وجوهٌ تسخر منه، وجه مقطب للوزير. انتفض وأمر بإسدال الستائر وطلب كأس عصير كوكتيل من البرتقال والجذر، ثم خطر له أن يطلب فرقة شرطة مزودة بكمامات ومناظير لحفظ النظام.

حاولت الفرقة دخول المدينة من طرفها الغربي محمولة على عربات نقل مدرعة، غير أن المناظير التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء لم تستطع سبر الغبار، فترجل رجال الشرطة وتقنعوا بكماماتهم، ساروا خطوات فقط ثم تجمعوا على أنفسهم فالرؤية كانت شبه معدومة وبالتالي لا فائدة من التقدم.

أكمل الأعمى تجواله، كان يمشي بحاسّة أرهفها احتجاب الضوء والصور عن عينيه سنوات وسنوات، محتسباً سمت الأشياء ومقدراً أبعادها، من وقت لآخر كان ينفض الغبار العالق بالكوفية التي يغطّي بها فمه وأنفه، لكن الذرات داخلت نسيجها بحيث أصبح من الصعب أن يتنصل منها، أنفاسه بدأت تضيق، رغم ذلك واصل سيره عازماً على إكمال جولته في شوارعها، كان يصرخ من وقت لآخر قاطعاً نداءه: هل من أحد هناك.. من أنت ... من يقف هناك؟ لم يرّد أحد. رغم أنه صادف عدة أشخاص لكنهم كانوا مذعورين يحاولون تلمّس طريقهم إلى مكان آمن، فليس لدى أحدٌ متسّع ليهتّم بالآخر.

قطع شارعين مقترباً من مقر الحاكم، ثم عبر الشارع أمامه، لم يوقفه أحد ولم يصح به إلى أين، سيقابل الحاكم ويهديه النسخة الأخيرة من كتابه، خلاصة حكمته في الحياة، توقف عن السير والمناداة وقال بصوت مسموع: لكنه لن يقرأه، فهو لا يحب القراءة وكتابي سيكون ثقيلاً عليه.

عدل عما خطر له وتابع مخترقاً وسط المدينة، لا شيء يخيف مثل ابن آدم....، أمّه كانت تقول ذلك، نفر خوف أفعواني من أسفل ظهره إلى رأسه، في مثل هذا الظرف لا يمكن لبشر سوي أن يبقى في الشوارع، فهو سيكون خطراً بالتأكيد، بدأ يحس بأشخاص يمرّون قربه، وأن أحدهم كاد يدركه من الخلف، ثم أحسّ برجال يمتطون جمالاً يتجاوزونه مترنحين ملثمين، هو الأعمى استطاع أن يرى ذلك ويميّز ما يحملونه على رواحلهم من أمتعة غريبة، بيوت شعر، أسفاراً قديمة مجلدة بجلود الغزال، قراطيس ودواة حبر، سيوفاً ورماحاً، طاسات فضية ونحاسية بأحجام غريبة، دسوت من الثريد، ضروف ماء وخاثر، قوارير تفوح منها رائحة عطرية ثقيلة، وربابات مشغولة من خشب الأبنوس وأوتارها من زيول أحصنة عربية. ما هذه القافلة ...؟ هل هو في الصحراء. أم هذا تهويمات الغبار.؟ لم يوقف أحد القافلة كان يتبعهم جمع من البشر ساهمين جزعين يرفعون أيديهم و في عيونهم فراغ قاتم.

سمع هدير سيارات، صرير عجلات يلجمها الفرامل وأبواق صوتها كالفحيح، حديث وصراخ من وراء الجدران، في حلكة عينيه شعّ ضوء غامض، فحرك يده وكأنه أراد أن يقبض عليه، سمع صوت وقع أحذية تهرس الغبار، فرفع صوته: اشتروا هذا الكتاب... اقتربوا، غير أنه لم يكن ثمة أحد.

أراد أن يعيد نداءه لكنه غصّ، ضاق تنفسه، وأصبح لهاثاً لجوجاً، نفذ الغبار إلى منافسه ومسام جسده، صارت ثيابه وكأنها رداء من شوك دقيق ولاسع، يبثّ في جسده وهناً وخدراً، ثقل جسده وتباطأت حركاته فتوّقف.

استقى من أوصاله من بقي من قوَّة ذاوية وحاول نقل قدمه، كأنه ينتشل جذعاً ثقيلاً، بالكاد جرَّ قدمه سنتمترات قليلة ليهوي بعدها، تجمّع على نفسه، آلاف الذرات الغبارية تدَّب علي جسده أحسَّ وكأنه بدأ يتقلَّص، قبض بيده اليمنى على الكتاب ودسَّه في عبه، حاول الكلام، خذوا هذا الكتا... اختلجت شفتاه، هاجمته زخة غبارية، سعل سعلات جافة متداخلة ثم شهق وصمت.

رأى نفسه نائماً، يابساً يروم الماء، قطرة واحدة ... وإلا سيفقد تماسكه، إنه حفنة تراب الآن، وإذا استمر عطشه سيتحوّل إلى رمل، تكوّر ليدرأ نفسه، يحتاج للماء .. الماء ... وإلا ستذروه الريح.

لم يكن هناك ماء.. مجرد غبار يلفح جسده وضباب أصهب يثقل رأسه.

صحراء... أنا في الصحراء، كانت آخر كلمات تخيّل نطقها، رأى أشباحاً لقافلة جمال قادمة نحوه، أراد رفع يده كي لا تدوسه، كانت بثقل جبل، لكنهم توقفوا عند قدميه، ناخ أحد الجمال، ترجّل عنه ملثم وحمله على ظهر الجمل وذهب، امتلأ بحبور خفيف وبرائحة تشبه رائحة المسك ...

وسط الشارع الصاعد إلى الجادات الطالعة سفح الجبل وجدوا جثة الأعمى وقد غلفها غبار كثيف فبدت كمستحاثة بشرية مطموسة الملامح، كانت يده مغلولة إلى صدره، أخرجوها بصعوبة، مازالت تقبض على كتاب بغلاف جلدي بني كالح.

المهندس الشاب الذي وجده لم يكن يهوى هذا النوع من الكتب، فسخر منه، غير أن ناشر تلقّفه وطبعه بحذر، لتصيبه الدهشة لنفاد نسخه بعد أيام، حيث الغبار لم يكن قد زال أثره بالكامل عن المدينة.

ثمة من فسّر ذلك بأنه نوع من النوستالجيا الخفّية لزمن البدء التي يعوّضها نسبياً هذا الكتاب بمحتواه وظروف اكتشافه، وهناك من قال إنه مجرّد تذكار لألم وكرب ما، ومعروف أن الإنسان يتذكّر آلامه أحياناً بحبور من تجاوزها، القسم الأكبر

أرجع إليه قدسية تأتت من مؤلّفه الذي لم يهتّم به أحد في حياته، لكنه استطاع الصمود في العاصفة، وربما هو ليس كتابه بل نقله عن أحد ما من أصحاب الكرامات.

كتاب الأعمى، طبع طبعات عديدة، وتمخّضت عنه كتب وأبحاث، الأثر الأهم الذي بقي من عاصفة غبارية قتلت كاتبه. ما زالت أفكاره تعتمل إلى الآن في رؤوس أهل المدينة، فقد انقسموا حولها فمنهم من يعتبره مرجعاً، بينما يعتبره الكثيرون مجرّد ترهّات.

أحد النقاد علّق قائلاً: كي تقرأه وتدرك عمقه، عليك أن تتخيّل نفسك تخوض في الغبار.

* * *

دوائر الحياة الفائتة

تخطىّ عقرب الثواني الرقم اثني عشر، انحدر على صفحة الميناء عابراً الأرقام الأخرى... عند الرقم ستة بدأ الصعود في حركة مكررة أبدية. صعود، هبوط، هبوط، صعود، ثوان، دقائق، ساعات....

أين سيذهب.؟ الضيق ضاق به والتفّ دائرة، انكمشت وبدأت تضغط عليه وهو يلوذ بالمركز، نهض أشعل سيجارة ثم خطا إلى النافذة.

تجاوز الوقت الصباح، الساعة الآن العاشرة وخمسون دقيقة، يصعد بصره مع عقرب الثواني إلى الرقم اثني عشر ثم يهبط معه، تك...تك... تك.. ستّون تكة، دائرة، دقيقة، دقيقتان........ تمام الحادية عشرة.

يستّفزه عقرب الثواني، لو يتوقّف قليلاً، توتّره الأشياء الحادة، رغم دقتها تفاجئك بثقلها وقدرتها على التأثير، تتّغصه

تلك التكّات الناعمة الواخزة التي ترسم خطاً بيانياً متواتراً للضجر والألم في رأسه، كأن رأسه مقياساً للسأم كمقياس الزلازل، يدور كلفَّة ورقية وعقارب الساعة تخربش خطوطاً مشّوشة في مراكز إحساسه. خطر له أن ينزعه عن ميناء الساعة، لن يتوقف جريان الزمن. يعرف هذا، لكنه على الأقل سيرتاح من رؤية حركته الدائبة وسماع صوته النافذ.

تك. تك. تك. اكتملت الدائرة، دقيقة، ثم دائرة أخرى.هو مثل عقارب الساعة مربوط من طرف إلى محور يدور ويدور في حركة عبثية لا جدوى منها سوى قطع الوقت، لا يحبّ الساعات منذ فترة طويلة نزع ساعة يده ولم يعدها ثانية.

ارتسمت في رأسه دوائر متداخلة، دوائر صغيرة، أخرى كبيرة ما لبثت أن تشوهت انبعج محيطها لتصبح اهليليجية، انخمص وتقطع خطوطاً منفلتة ثم تلاشى، انتابه شعورٌ آني بالراحة فهو يكره الدوائر والأشكال الهندسية وكل ما هو مغلق.

لابد أن يخرج من هذا الضيق، نهض بتكاسل، نظر من النافذة بشكل موارب إلى أبعد نقطة يطالها بصره من الزقاق، لا أحد في الخارج، أين كلّ هؤلاء الناس الذين يراهم كل يوم..؟ هل هم نيام أو ربما يلتهمون الفول مع العائلة.؟ فتح الباب ببطء وخرج من المنزل، قطع شارعين عرضاً ثم انعطف يميناً ليلتقي

بالشارع الرئيسي الذي يرفد ساحة النزهة، مضى عبره بفتور وكأنه يتبع قدميه فقط ولا إرادة له فيما يفعل، خطر له أنه سيلتقي شخصاً يعرفه. كحلم.... لوهلة رأى نفسه... شاباً يبتسم يسير بنفس الخطوات، انغلقت الرؤيا مخلفةً علقت ابتسامة على وجهه، لبرهة فقط، كان ذلك كمن يرى صورته في فيلم، جفل.. فرك عينيه.. لم يكن أمامه سوى رصيف خلا من المارة، تابع سيره.

غمزت إشارة المرور مرتين بالأحمر ثم قفزت عبر البرتقالي إلى الأخضر فتوقف، استند إلى الإفريز الحديدي الذي يفصل الرصيف عن الشارع يراقب حركة السيارات والبشر المتلكئين بعد سهر ليلة طويلة ونوم مضطرب. الشوارع شبه خالية معالمها واضحة أكثر من أي يوم عادي غطتها مسحة قنوط، بدكاكينها المغلقة والحركة الفاترة للمارة القلائل.

من باب بيته إلى ساحة النزهة، معالم اعتادها بكل حواسه، انبساط في الشارع هنا، جورة ريكار هناك، بلاطة منزوعة على الرصيف، عمود كهرباء، آرمة إعلانات، بروز في الحائط، نافذة بنمط قديم، رائحة الخبز الساخن، رائحة محل الحلويات، مطعم الفلافل، محلّ الخضار والفواكه، أصوات بشرّية اعتادها وأخرى يسمعها للمرة الأولى. قطع تلك المسافة آلاف المرات... وعدّ خطواته وكأنه يتأكّد أن المسافة لم تطل أو أن الزمن هو هو، ثوان ودقائق.. وساعات.

هذا اليوم ازدادت الخطوات قليلاً، ربما هو الشرود أو التردّد ما جعل خطواته أقصر.

الزمن، الزمن.. يكره هذا اللفظ، الزمن أيام أيضاً.. يأتي يوم العطلة بعد ستة أيام، أحياناً يتمنى أن يأتي كل يومين وأخرى يتمنى ألا يأتي أبداً، يعود ذلك لمشاكل العمل، ينتظر العطلة ليرتاح منها، يتحلل من الاستيقاظ مبكراً، من ضجة المراجعين من تلك العلاقات المفروضة عليه... لكن لا يلبث أن يستيقظ في وقته المعتاد رأسه مشوش وفي ذهنه أعمال صغيرة مؤجّلة ومتراكمة، إصلاح المغسلة... مناشر الغسيل.... طاولة أو كرسي..... لكنه غالباً لا يصلح شيئاً لا يحتمل البقاء في البيت، يبدأ ذلك القلق الثقيل يتمدّد في داخله.

هذا الصباح.. أراد إصلاح المغسلة.. عدّل مرآتها لكنه كسر طرفها وهو يحاول تثبيتها، فار في داخله ذلك الحنق الرابض، انهال على المرآة بضربات متلاحقة.. ليهشمها... وضع الشاكوش وزوجته تنظر إليه بدهشة، لم ينطق بكلمة وهو يخرج من البيت " المهم أن يخرج " كما فعل اليوم، تبدلت الإشارة إلى الأحمر لكنه ظل يتكأ على الإفريز الحديدي..

إلى أين سيذهب..؟ الساعة الآن الحادية عشرة وعشرون دقيقة، بالتأكيد لن يذهب إلى أحد زملاء العمل وجهه في

وجوههم طيلة الأسبوع، سيعيدون نفس الأحاديث، المدير وأعوانه والراتب والحوافز..

تبدّلت الإشارة إلى الأحمر، انقطع سير السيارات، اعتدل في وقفته وخطا ليقطع الشارع لكنها كانت خطوة واحدة فقط، إلى أين سيذهب... لم لا يزور أحد أخوته؟

منذ سنوات بدأ يحسّ أنه يبتعد عنهم يوماً بعد يوم، إنها دورة الحياة فعندما يكبر الأولاد يصبحون الدائرة الأولى، ثم الأخوة والأقرباء، العلاقات دوائر أيضاً.. عادت الإشارة إلى الأخضر فأوعزت للسيارات بالتحرك.

مر زمن على زيارته الأخيرة لأخته، المسافة قريبة إلى بيتها لكنها ستبدأ بالشكوى والأنين وزوجها سيحدّثه عن مشاريعه التجارية وذكائه الخارق. تبدّلت الإشارة إلى الأحمر عبر شخصان من أمامه، عبر شخص آخر وآخر..، تلفت حوله كان وحيداً، خطا خطوة ليعبر أطلقت سيارة بوقها بنزق وتطاول السائق من نافذتها مطلقاً كلمات لم يفهمها، لم ينتبه إلى أن الإشارة تبدّلت إلى الأخضر وأن السيارات انطلقت من جديد، تراجع عن خطوته ليقف على الرصيف من جديد.

دار على نفسه مستعرضاً الشوارع المتفرعة من الساحة، استرخاء يوم العطلة قللّ من الحركة، باتجاه الغرب انبسط شارع الحضارة، في طفولته كان عبارة عن حقول منبسطة يلعب فيها

مع أترابه الصغار كرة القدم وألعاباً أخرى، من النقطة التي كان يقف فيها كان يدحرج عجلات السيّارات القديمة.

أين سيذهب..؟ لابد أن يزور أحداً ما.... لا بدّ من ذلك..لم يكن يعاني من ذلك فيما مضى، في فتوّته كان يخرج لا يدري إلى أين، لكنه يعرف أنه لا بد أن يصادف صديقاً... هل كانت الدنيا أصغر من الآن؟ بالتأكيد لا، أم أنه لم يعد هناك من يخرج من بيته؟ لو يستطيع زيارة أحد أصدقائه القدامى، رفاق الطفولة، الزمن البريء... تحسّس ندبة صغيرة في جبينه، وتذّكر إبراهيم الذي سبّبها له بقذفه بحجر، إبراهيم مات بسرطان الدم ولم يبق منه سوى هذه الندبة وذكريات لمجريات سنوات مضت.

الزمن، الزمن.... سنوات، أربعون سنة عمره الآن، منذ عشر سنوات تزوج، منذ خمس عشرة توظف ومنذ خمس وعشرين تزاحمت الأبنية على حافتي شوارع قسمت البساتين بشكل آخر، من هنا كانوا ينفلتون في أرجاء المدينة إلى السينما أو الحديقة، لو يصادف أحدهم الآن.. انقطع عنهم فترة كبيرة ليس من المعقول زيارتهم فجأة هكذا... لو يعرف أرقام هواتفهم.. تحسّس جيوبه بحثاً عن الموبايل، يبدو أنه نسيه، لو جلبه معه ربما وجد في أسماء من سجّل أرقامهم من يذهب إليه، لكن هذه عادته ينساه دائماً، بل لا يرغب بحمله وكثيراً ما يغلقه

لأيام، لماذا اشتريته ما دمت لا تريد أن تحمله..؟ سؤال زوجته الذي لم ولن ولا يرغب بالإجابة عليه.

لا بد أن يزور أحداً ما.. الإشارة الآن حمراء السيارات متوقفة، بإمكانه العبور، لم يتحرك، شعور بالإحباط أغلق عليه، طافت في رأسه وجوه نسي أسماءها وأسماء نسي وجوهها... تلفّت إلى كل الجهات، لكّل الشوارع معنى واحد الآن، مسافة عبثية.. أين سيذهب... من سيزور..؟

تناوب الأحمر والأخضر مرّات عديدة وهو واقف يتكئ على الإفريز الحديدي، ينقل ثقله من رجل إلى أخرى... لم تعد الإشارة تعني شيئاً، ليست هي من يحدّد العبور، من المستحيل عليه إكمال خطوة واحدة إلى الأمام.. أين سيذهب..؟

مدينة، دائرة واسعة من البيوت من المعارف، وليس لديه من يزوره..... دوّامة من الوجوه مختلطة الملامح لاحت أمامه، وجه يضحك.... وجه مهموم... وجه عابس.. وآخر ساخر... وجه يشبه وجهه وهو ساهم.. انتفض.

خطا عائداً إلى منزله مشى ببطء وتكاسل عبر الشارع الرئيسي الذي يرفد ساحة النزهة ثم انعطف غرباً قطع شارعين عرضاً، دخل منزله وما زال يلّح في نفسه ذلك الشعور بأن

عليه أن يزور أحداً ما... لا بدّ أن يزور أحداً ما... توقف على باب المنزل، تلفّت حوله قال في نفسه: ربما فيما بعد لابد...

أغلق الباب، كان عقرب الثواني قد اجتاز الرقم اثني عشر ووصل إلى الرقم ثلاثة راسماً قوساً من دائرة جديدة، أما عقربا الدقائق والساعات فقد أشارا إلى الثانية عشرة وخمس دقائق.

* * *

مونو دراما النائم

في مجال البصر، حيث توقّف الشاب، قوس باب توما يتحامل على نفسه منتصباً كجنرال عجوز متقاعد، آبد منتهك بالفراغ فقد معناه بعد أن تلاقى الداخل بالخارج فامتزجا في ساحة معبدة، يمضي نحوه مباشرة شارع خال، يميناً السور الذي ينتهي بباب شرقي، ويساراً شارع فرعي يعبر النهر بجسر ضيق.

حيوية المدينة الآن كما البشر في أدنى مستوياتها، فهي شبه خالية، الأرصفة نالت قسطاً من الفراغ لكنها تتلهف لوقع الخطى والشوارع تبيح نفسها لأي عابر، للبشر والعجلات، فلا حياة لها دون ذلك. المدن لا تنام تسهو فقط وان فعلت تنام كالسمك بأعين مفتوحة. هي في الليل تسفر عن معالمها وملامحها التي يشوشها البشر نهاراً، فيتّضح طابعها الحقيقي، حزنها وفرحها.. حيرتها.. ورصانتها.. هي.. حينئذ مرآة بوجوه لا تحدّ.

هزيع الليل الأخير يتحفظ على الأشياء بغلالة رمادية تميل للزرقة، أعمدة الإنارة ما زالت على وقفتها وستبقى، لا يعنيها الصباح سوى بإغماض أضوائها التي تبدو كعيون تكابد الأرق.

لم يشأ الشاب استباق الصباح لكنه كان أسرع منه ببلوغ المدينة.

ترجَّل من الباص، ثلاث سيارات تكسي طراز سابا كانت تقف بانتظار زبون، همّ بركوب إحداها لكنه تذكّر أن لا مكان يذهب إليه، فليس من اللباقة أن يزور أحداً في الرابعة صباحاً، والدوائر الرسمية لا تفتح قبل الثامنة، لذا لا جدوى من أن يستقل تكسي، توقّف، قفز بصره إلى أضواء الأعمدة المصطفة في منصف الشارع، استدرجت عينيه وخطواته فمشى مسايراً لها إلى أن بلغ الموقف.

لم يفكر بالتوقف ثانيةً، غير أنه سمع صوتاً خفيضاً وحزيناً يناديه كأنه ينفذ من فم كُم بالخشية، يهبط من زاوية ما فوق الحارة القديمة أو من خلف السور العالي أو الجدران المتكاتفة. لم يكن واضحاً في البداية، بدأت الأحرف تنتزع بتوتّر من يعاني حبسة لغوية، كرَّر النداء: أنا أنتظرك.. وكأنه تحرَّر من حبسته وبصوت خفيض ومدغم برجاء ما، الصوت وطريقة الكلام ذكّرته بشخص ما. سليم حانا... قال وابتسم، سليم حانا..! كيف حضر الاسم في ذهنه؟ ربما لأنه قرأ مؤخراً عنه. تلفّت

حوله لم ير أحداً، بالتأكيد ليس هو لأنه مات منذ زمن بعيد، مات مشرداً يدور في الشوارع ويستجدي سيجارة.

لكن من أين أتى الصوت؟ تكرّرت معه هذه الحالة، أوَّل مرَّة لم يكن قد تجاوز عشر سنوات عندما أضاع كلبه على مشارف الغابة المتاخمة للقرية، توّغل فيها ليبحث عنه، بعد ساعتين سمع نباحه في ناحية ما بين الأشجار، لكنه لم يجده... هل توهم ذلك؟ عاد إلى البيت مع العتمة ووجد الكلب قد سبقه أنّبه أبوه لتأخره. فأخبره أنه كان يبحث عن الكلب.

قال أبوه: ليس هناك عاقل يبحث عن كلب لأنه يعرف طريق العودة أكثر منك

فيما بعد سمع أصوات أشخاص في أماكن منعزلة وخالية، أشخاص هم بمنتهى الحيادية بالنسبة إليه، ولم يتوقّع يوماً أن يتذكّرهم. كيف يحدث ذلك..؟ لا يعرف.

لم يكن حوله أحد، مرت تكسي، وعربة نفايات يتعلّق بها رجل يتلفَّع بكوفيّة، توقّف إذا استمّر بالمشي سيصل إلى حي الدويلعة بعد ربع ساعة وإلى الصالحية بعد ثلثي الساعة، ستبقى أكثر من ساعة ونصف ليستيقظ الناس وأكثر من ساعتين ليبدأ العمل، لم لا يجلس هنا ويقرأ أو يراجع مسرحيته التي أتي

لتقديمها لمديرية المسارح؟ أخرج المخطوط وبدأ بمراجعته، وجد بعض الأخطاء وأراد تعديل الحوار في عدّة مشاهد، المسرح خشبة، كلمتان لا يملّ من ترديدهما مدير المسارح. لم يكمل تدقيق المسرحية، فقد تراخى جسده بفعل النعاس.

تحت مظلة الموقف وعلى زاوية المقعد، احتضن الشاب حقيبته ونام.

لم يهتّم به أحد، مرّت دورية شرطة توقّفت، قال شرطي: هل نوقظه ونطلب هويته..؟ فضحك آخر وقال: ولماذا...؟ دعه ينام.. هويته واضحة إلا إذا شئت معرفة اسمه.

الزبّال الذي نظَّف الشارع فعل ذلك بكل هدوء وكأنه يراعي ضيفاً في بيته، كنس حوله بروية وتأن وحاذر أن تمّس المكنسة قدميه.

لم يقلّل انثناء جسده من مظهره الطويل، فقد امتدت ساقاه لتصلا حد المظلة، وانحنى جسده انحناءة متوسطة فرضها مسند المقعد، أما عنقه فقد التوى بشكل جانبي. كان وضعاً قاسياً للنوم لكنه نام بسلام. هذا ما أكّده من شخيره المتواتر الهادئ وملمح الابتسامة المتحفظة على محيّاه.

الحقيبة لم تكن مغلقة تماماً، توقَّف سحابها في المنتصف، من النصف المفتوح خرجت أوراق دعكت أطرافها تحت وطأة

يده، لم يكن بمعصمه ساعة، انزلقت نظارته عن أنفه وأذنيه وعلقت على ثنيَّة قميصه، كانت تعلو وتهبط بشهيقه وزفيره، بين قدميه على أرض الموقف تدحرج قلم رصاص.

عيناه المغمضتان حذفتا معنى ما من وجهه، فشلت ابتسامته بالإفصاح عنه، فقد كانت أقرب إلى إشارة استفهام معوَّجة.

الشاب ليس مشرَّداً، هذا واضح من مظهره، ثيابه النظيفة وذقنه الحليقة، شعره الذي نكشت تسريحته إلى حد ما وحذائه النظيف.

كان بإمكانه أن يخلع حذاءه ويتمدّد على المقعد الإسمنتي، يضع حقيبته تحت رأسه وينام، فذلك أكثر راحةً، لكن لسبب ما لم يفعل، هل كان هناك شخص يقاسمه المقعد أما أنَّ النوم أخذه خلسةً...؟

في لحظات انحلَّ الغبش بسكبة نور خلاَّقة ليكون الصباح. عارض كوني لدوران دؤوب يبدأ حيث ينتهي، وينتهي حيث يبدأ.

الأرصفة شرعت تستعيد نبضها، وقع أقدام مختلفة وعجلات عادت تتمرغ في الشوارع، بدأت جلبة الصباح ببوق سيارة.. سيارتين... صوت محرّك، أصوات... الجلبة تتصاعد، والشخص النائم على مقعد الموقف ما زال نائماً، كل ما فعله أن عدّل وضعه قليلاً.

أخذ الموقف يستعيد رواّده، وصل جندي تعوَّد أن يخرج مبكراً ليلحق بقافلة مبيته، فاجأه النائم، قال في نفسه: لو أنّه في نوبة حرس لزّج في السجن فوراً، لكن يبدو مسكيناً ولا يعرف أحدا في هذه المدينة وربما هو مفلس لذلك نام هنا، ابتعد عنه وقال: ما زال الوقت باكراً ما الذي يجبره على الاستيقاظ الآن؟ يجب ألاّ أزعجه.

الرجل الثاني كان عاملاً، نظر إلى النائم وقال: نم على الحجر ولتكن مطمئنا، على الأقل لست مثلنا تستيقظ في الخامسة وتعود في الخامسة، ولا ترى نور الشمس في منزلك إلا يوم الجمعة، لا أحد يهددك بالطرد أو يصرخ في وجهك.

وصلت صبية وعنــدما رأت النائم تأووت بغنج: واوووووووو، انيالك، كتير فانتاستك، بتعمل اللي بدك إياه، على الأقل ما بتقلق من الامتحان، ياي ما أحلى الحرية.

أخرى فكّرت: يجوز أنه ليس لديه منزلاً ينام فيه، وتذّكرت أخيها في إحدى دول الخليج.

شاب جامعي همس لنفسه: هل من المعقول أن أنتهي هكذا بعد أن أتخرج..؟ اقترب بهدوء من النائم وقرأ في أعلى الصفحة الأولى الظاهرة من حقيبة النائم (استراحة جنرال) مسرحية، فهمهم تهكماً، كاتب، لهذا ينام هنا.. مجرد مزاج، لكن ما هذا النوم الثقيل..؟

امرأة عجوز قالت بحزن: الله يساعد ميمتك، الحياة صارت صعبة، حرام، أكيد طالع عالشغل بكير وما كفى نوم فنام هون، الحياة صعبة.

أبطأ رجل خطواته وهو يعبر عائداً من جولة صباحية يرتدي زياً رياضياً فاخراً وعلى هيئته سيماء النعمة، قلّص وجهه بامتعاض واستطارت كلمات في داخله: لن تصبح هذه المدينة جميلة إلا بعد أن تنظّف من هؤلاء.

أما الطفل الذي وصل إلى الموقف وهو يبكي متذمراً من الذهاب إلى الروضة، فقد صمت خوفاً عندما رآه وسأل أمه: هل هذا حرامي....؟

أمه التي كانت تخوّفه دائماً بالحرامي، وجدتها فرصة ليكّف عن البكاء فأجابته نعم، لكنه نائم، لا تبكي سيستيقظ.

صمت الطفل وما لبث أن همس: لكن الحرامي لا ينام، أنت قلت هذا.

لم تجب الأم، وبقي الطفل يحدَّق فيه بخوف.

لم تنل الضجة المتزايدة من نوم الشاب، فإغفاؤه من الثقل بحيث أنه بدأ يحلم، هذا واضح من اختلاج ملامحه، توتّر شفتيه، تبسّمه وتقطيبه، وغمغمته بكلمات فهم منها كلمة المسرح فقط، المسرح... خشـــــــبة، يسمع لغط جمهور في حالة

اختلط فيها ما يحيط به بالحلم، المسرح خشبة، كانت كلمات مدير المسرح السابق التي يرميها في وجهه دون أن يقرأ مسرحيّته وقد انتظر سنة ونصف حتى ذهب.

- المسرح خشبة، ما زال مدير المسرح يصرخ بذلك.

- لا يهم فقد أصبحت خارج الخشبة بعدما جردوك من منصبك.

- لم أذهب...أنا باق... المسرح خشبة... ها.. ها

بدأ بتمزيق مسرحيته بحنق، تزحزح جسده وبدا بتحريك يديه بعصبية وتوتّر، سقطت حقيبته من حضنه، هدأت حركة يديه، تلمَّس مكان الحقيبة فلم يجدها، فتح عينيه وكأن ما يفعله هو استمرارٌ للحلم. غير أن ما رآه اختلف عما يرى النائم.

فتح عينيه بفتور فرأى قامات مبهمة تحيط به، أطبق جفنيه على ما حسب أنه استمرار لحلمه غير أن في لحظة واخزة أدرك أن هذا ليس حلماً فانتفض جالساً بحلق حوله بدهشة وبعد لحظات استوعب أنه كان نائماً على مقعد الموقف، من النافذة الطولية رأى هيكل باب توما، في الجانب الآخر شجرتي كينا كبيرتين، وأمامه على عرض الموقف أشخاصاً واقفين، ينتظرون ليذهبوا فهذا المكان ليس للبقاء.

اعتدل جالساً وبدأ يتفقد أغراضه، التفت الواقفون إليه، تمنّى أن يغمض عينيه من جديد ويفتحهما فلا يجد من حوله، لم ينظر في عيني أحد بل تشاغل بلملمة نفسه، لكن النظرات ما فتئت تهمزه بعضها متسائلاً وآخر ساخراً أو ضاحكاً مستغرباً.

صح النوم، علّق أحد الواقفين، الحرامي استيقظ، شدَّ الطفل كم أمه وقال ذلك. كابتشيونو أم قهوة؟ سألت صبية مازحة، والله أريح لك من النوم بجانب زوجتك إن كنت متزوجاً، قال رجل مهمل اللحية.

صرخة مدير المسارح هي ما تذكّره من حلمه، المسرح خشبة، ما فتئت العيون تحدّق به، تفصح عن فضول يستفّزه، يلح عليه بتساؤل صامت، محمول على نظرات مدهوشة بطرافة ما ترى أو مستنكرة.

وصلت إلى هنا مبكراً........ قال وكأنه يكلّم شخصاً ما يعرفه منذ زمن أعرض البعض عنه واستمرَّ الآخرون بالنظر إليه، وصلت إلى هنا مبكّراً.... قالها بصوت أعلى، جئت لأراجع وزارة الثقافة، لكن الوزارة لا تفتح أبوابها حتى الساعة الثامنة. سمع ضحكة خفيفة ساخرة.

لم أكن أنوي النوم هنا، لكني سمعت صوتاً كصوت سليم حانا يناديني، هل تعرفون سليم حانا....؟ اقترب البعض منه ردّ رجل

عجوز: رحمه الله، حاول آخر تقليده: لـــ...... يالطـــيـــ ففففف. ضحـــك البعض. نعم، نعم سليم حانا ناداني فتوقفت وجلست هنا.

أنا كاتب مسرحي – تشرفنا - رد أحدهم، أحاول أن أكون ذلك، استدرك لكنّهم إلى الآن لم يخرجوا لي مسرحية، مدير المسارح يقول المسرح خشبة، في الفترة الأخيرة لم يعد يستقبلني لأنه اتهمني بخدش سيارته، ضحك الجميع، جهاد سعد يريدني أن أكتب مسرحية مثل كاليغولا، محمد الماغوط يقول: ماني فاضي لك، وقتي ضيق أكتب مسرحية لمحمود جبر، وغسان مسعود يشذِّب لحيته. أما ممدوح عدوان فلا يملّ من نصحي بأنه يجب علي أن أقرأ.

صمت لحظة، ما زال الجميع ينظرون إليه باستغراب، أنا بدون عمل، بحثت عن وظيفة دون جدوى، اقترضت مائة ألف ليرة وأنشأت بيتاً زراعياً، لكن الصقيع حرقه.

نهض وبدأ يدور تحت مظلة الموقف، عملت ببيع الدخان المهرب، لكن لم أبع سوى علبتين من الصبح حتى الظهر، كنت أبيع لاكي ستاريك وأنادي على الفايسروي، فقد سهوت عن النوع الذي أبيعه أكثر من مرة، كان يؤازر كلامه بحركات يديه وتعابير وجهه، توقف السرفيس والباص، توقفت سيارات تكسي

وسيارات أخرى، نزل أشخاص وذهب آخرون، غير أن هناك مجموعة ظلَّت واقفة، كانوا ينظرون إليه بانفعالات مختلفة، بعضهم كان يتعاطف معهم، آخرون وجدوا الأمر مسلياً، وهناك من اعتبره أخوت.

حاولت العمل بالمرفأ، لكن لكي أحصل على بطاقة عامل إنتاج، علي أن أدفع مئة ألف ليرة، من أين...؟

كتبت أخيراً مسرحية، تناول الحقيبة وأخرج رزمة أوراق منها وقال: هاهي، عنوانها (استراحة الجنرال).

أنتم تعرفون الجنرالات، هل هناك من لا يعرف جنرالاً...؟ لم يرد أحد من الجمهور بل ظلّوا يحدّقون به.

الجنرال يفعل ما يريد... ليس كل ما يريد بل ما أعطي صلاحية ليفعله، هذا يعني أن لكلّ جنرال سلطة ما، غير أنه هناك جنرالات يفعلون ما يحلو لهم، كيف ستكون إجازة هذا الجنرال وكيف سيقضيها..؟ هذا هو... العيون المأخوذة بالنائم الذي استيقظ، داخل نظراتها تعبير من الحذر والخشية، وبدأت تزوغ عنه.

توقّف النائم لبرهة ثم أكمل: أوحى لي بهذه المسرحية جاري الجنرال، لقد استولى على تلّة كاملة من تلال بلدتنا، كانت فيما مضى حرثاً لأهالي القرية، اكتشفنا فجأة أنها أملاك

دولة ثم أصبحت له، قالوا لنا أنه استأجرها من مديرية الزراعة، من شرفة منزلنا أستطيع رؤية الجنرال، هذا لن يستمر طويلاً لأنه بدأ ببناء سور.

النائم أصبح يتكلَّم براحة وكأنه نسي أين هو وسبب وقفته هنا شرع يشرح المسرحية بحركات جسده، قال رأيته بعيني ينام هكذا شبه جالس، جلس النائم على المقعد وقلَّد الجنرال في نومه، هكذا.. نعم هكذا وكأن في نومه كبرياء لا يرضى أن يتنازل عنه، ورأيته يأكل، فعل ذلك بنهم، فتح النائم فمه ثم أغلقه وأبقى خدّيه منتفخين، ألم يقولوا أكل الرجال على قدر أفعالها، الجنرال رجل فكيف لا يأكل بنهم...؟ ورأيت الجنرال يداعب حبيبته نعم رأيته، ازورَّ عدة أشخاص وانسحبوا، اقترب النائم من عمود الموقف وبدأ يتحسسه كأنثى ثم ضربه، الأنكى من ذلك أيها السادة أني رأيت الجنرال عارياً.. نعم.. نعم، رأيته عارياً وهو يستعد للقفز في المسبح، يجب أن أعترف بأنه يحظى بجسد رياضي، سأشرح لكم، بدأ النائم يفك حزامه ليتعرى، ابتعد أكثر الأشخاص الواقفين، القلّة بقوا ليروا ما سيفعله، خلع النائم قميصه، ليظهر جسده الناحل، قلَّص ساعديه محاولاً تكوير عضلاته، بدأ يجدف في الهواء مقلّداً حركات السباحة، توقّف فجأة وقال: بعد أن تعب الجنرال من السباحة استرخى على

أريكة قماشية، تمدّد النائم على المقعد وأغمض عينيه، لم يكن يسمع ولا يهتم بالضحكات والتعليقات التي يطلقها الواقفون، ولم ينتبه أنه بعد أن تعرّى انصرف أغلبهم، وعندما تمدّد على المقعد ليسترخي وأغمض عينيه لم يبق أحد منهم.

انتفض واقفاً وقـال: ورأيت الجنرال يبكي، نعم رأيته فالجنرال كائن بشري ويبكي، إنه... إنه... الجنرال يبكي بطريقة غريبة... هكذا كان على وشك أن يمثّل كيف يبكي الجنرال لكنه انتبه أنه لم يعد أمامه أحد. هل كان يحلم..؟ لا أبداً، كان ثمة جمهور أمامه.

تلفّت حوله لم ير سوى سيارات تعبر وأشخاصاً يمرون، ينظرون إليه باستغراب واستهجان، تحسّس جسده كان عارياً، تناول ثيابه بارتباك وخجل، قفز إلى خلف مظلة الموقف وبدأ بارتدائها، لن يذهب إلى إدارة المسارح، لا داعي لذلك.. لأن المسرح خشبة والخشبة جمهور، والجمهور لم يفهم كيف لجنرال أن يبكي ولا يقبل ذلك.

* * *

نصائح الكلب الهرم

سيأتي كلب فتي يهزّ ذيله بخيلاء وعصبية وينبح على أية حركة وصوت برعونة، يجمح مندفعاً محاولاً فكّ رباطه ليهاجم كل شيء حتى الهواء، عرفت ذلك من تصرفات صاحبي الأخيرة، فقد تغيّر ولا بد أنها آخر أيامي في البرميل.

فعلت هذا منذ زمن بعيد عندما أتوا بي من قرية جردية في أعالي الجبال، كنت مسروراً هناك، كلب فتي تفتح على الدنيا منذ وقت قصير، دمي يستعر عندما أغضب.

الرجل الذي أتى بي كان يعبر تلك القرية، مرّ من أمام منزل صاحبي القديم وتوّقف، فنبحت، لكنه لم يتحرّك، بل حوّل نظره وبدأ يُحدِّق بي، قفزت على قوائمي وبكل ما أوتيت من قوة اندفعت هاجماً عليه، لكن هجومي كان على مدى سلسلة نسيت أني مربوط بها ولجمتني بقوة.

خطا ثلاث خطوات ثم عاد وصاح، رأيت صاحبي القديم يخرج، ثم دخلا سويةً إلى المنزل وهما يتحدثان، فهدأت وبدأت أتحرش بعنزة مربوطة قربي.

بعد قليل غادرت القرية مع صاحبي الجديد مربوطاً بحديد صندوق السيارة، كمموا فكي، لم أستطع النباح ولم استطع حبس دموعي طوال الطريق.

وجدت هنا كلباً هرماً، مثلي الآن مربوطاً بشجرة زيتون، نظر إلي بعنين مهزومتين، أذناه كانتا ذابلتين وذيله ملتصقاً بمؤخرته.

ربطوني قريباً منه، اقترب مني لكن سلسلته لم تسمح له بالوصول إلي، ولا سلسلتي، تبادلنا النظرات عن بعد وصمتنا.

أدخلوني بالقوّة إلى برميل فرشت فيه خرق قديمة وغطّي بأغصان أشجار، أحسست أني سأختنق، خرجت منه ونبحت إلا أن صاحبي عاد وأدخلني إليه بقسوة، عرفت منها أنه يريدني أن أعتاد عليه، دخلت وأبقيت رأسي خارجاً.

لا تقاومهم، هذا أسلم لك... كانت أولى كلمات الكلب الهرم، كان كلباً مسكيناً، بعد وصولي لم ينبح إطلاقاً.

في اليوم الثاني قال إنه صامت لأنه لا يريد أن يذّكرهم بنفسه فهو يخشى أن يقتلوه، هذا ما يفعلونه بالكلاب الهرمة، يأخذونها إلى البريّة ويطلقون عليها النار، وإذا ترّأفوا بها يطردونها لتصبح شاردة، وهي لم تعتد ذلك، فتصبح سخرية الكلاب الشاردة الأصيلة ولعبتهم.

ظلَّ حتى آخر يوم رأيته فيه حين يرى عصا النار بكتف أحدهم، يرتجف ويعوص تنبل أذناه ويدّس ذيله بين قائمتيه ملصقاً إياه بمؤخرته ثم ينبطح يلصق رأسه بالأرض ويغمض عينيه متظاهراً بالنوم والمسكنة، يترك زاوية صغيرة يرى منها كأنه بذلك يختفي عنهم، يبقى هكذا إلى أن يبتعد من يحمل تلك الآلة.

سألته لم تفعل ذلك...؟ هل تعتقد أنهم لو أرادوا ذلك سيتركونك..؟

قال: أنت أخي الصغير وربما لي أولاد مثلك، لقد خضت مغامرات كثيرة مع كلبات مختلفات وخرجت منها منتصب الأذنين معزوز الذيل، أفعل ذلك ليتغاضوا عني، لن أكلفهم شيئاً، لا أريد أن أتشرّد ويتسلّى بضربي الأولاد ولا أن أموت على طريق كبير وواسع مدهوساً بآلة يركبها بني آدم، فقد حكى لي كلب شارد مرّ من هنا وتسليّنا لساعة أو أكثر أن الكثير من بني جنسنا يموتون دهساً تحت تلك الآلات المجنونة، وذلك لخطئهم بتقدير سرعتها، فنحن نتقن تقدير سرعة ضيع أو ابن آوى أو ابن آدم يمشي أو يركض، أما هذه الآلات فهي تصعب علينا، ثم ماذا يعني أن يموت كلب شارد لابن آدم..؟ البعض يحاول تفادي دهسه.. قلّةُ فقط، أما الآخرون فلا يكلفّون خاطرهم محاولة صغيرة لتفادي ذلك، الأهمّ من ذلك أن الكلب الشارد

يبقى مشتَّت الأفكار، لا أريد أن أموت بطلقة بندقية صيد. ولا أن أتشرَّد إذا تركوني هنا سأكون محظوظاً وسوف أساعدك.

حزنت لحال هذا الكلب الهرم، أخي الكبير، رغم أنه ليس من فصيلتي، إلا أننا جميعاً كلاب، وقلت لنفسي سأتخلّى عن البرميل، ولأنم خارجاً فأنا قوي وأتحمّل وفي قريتي الجردية قلمّا كنت أدخل إلى القبو الذي ربطوني بعموده.

الكلب الهرم رفض وقال: في حال فعلت ذلك سيضربونني ويضربونك، وسيخرجونني فوراً وربما أطلقوا علي النار، ابق في البرميل، ولا تهتم.

كيف لا أهتم..؟ لو أن الطقس صيف لكان الوضع مقبولاً، لكننا ما زلنا في الشتاء.

ردّ الهرم: لا بأس... لا بأس ســـألوذ بجذع الزيتونة المهم ألا أتشرّد.

أنا شرس بطبعي وإذا تلحلحت نسمة أثور وأنبح، هذا طبع ولا أفعل ذلك مرضاةً لصاحبي، أكثر ما أزعجني هنا، تلك الآلات التي تعبر الطريق أمامي بسرعة وهي تهدر وتدوي، ويركبها ابن آدم.

الكلب الهرم قال: بعد فترة وعندما يرى صاحبنا أنك اعتدت البيت وعرفت أصحابه وما حوله سيّفك سلسلتك، ستغدو حر

الحركة، فتبسّمتُ في داخلي، إياك أن تجري وراء إحدى الآلات وتنسى نفسك، هذه الآلة لا تمشي لوحدها، يقودها ابن آدم، وهو أكثر ما يجب أن تحذره، لأنه أخبث مما تتصور.

مرّةً..... أقعى الكلب الهرم بعدما كان منبطحاً، غَرغَر وقال: مرّةً مرّت آلة من هنا، آلة كبيرة لها أربعة أرجل، يجلس فيها على الجانبين بني آدمين، كنت منبطحاً هناك ومنزعجاً من الجوع والملل، صاحت وهي تمرق بالقرب مني صيحتين فجفلت وضحك البني آدمين، قفزت وجريت وراءها بغيظ، كنت فتياً وقتها وأسرع من النمر، يجب أن تعرف أن هذه الآلة تسرع كثيراً، اندفعت ناسياً نفسي لألحق بها وأنا أزمجر، لحقتها وعضضتها وأنا أجري، كانت قاسية جداً أقسى من عظام الحمير، من الأشجار والحجر، مما أوجع أنيابي، تركتها لكني استمريت بالمطاردة وهي بتلك السرعة الكبيرة زعقت وتوقفت فجأة فاصطدمت بها وتدحرجت على حافة الطريق، تشرَّمت أذناي وتجرَّح جسدي وتهشَّم، كأني تعرّضت لهجوم ثلاثة ذئاب..... إياك أن تطاردها.. إياك..... مهما استفَّزك من فيها. هي بأحجام مختلفة مثلنا نحن الكلاب.

عليك أن تحذَر أيضاً الأولاد الحمقى، ليس الأطفال، بل أولئك الفتيان الذي يتسلَّون بك، إذا كنت نائماً يلكزوك، وإن كنت

قائماً يستفزونك ويغضبونك، يقذفونك بالحجارة ويهربون، تجاهلهم عندئذ سيتركونك، أنت لست كلب صيد وأنا كذلك، وهذا من سوء حظنا، لو كنا كذلك لتنزّهنا مع صاحبنا وأولاده، ارتجف الكلب الهرم لأنّه تذّكر البندقية وعاص عوصة خفيفة، والأمر أيضاً من حسن حظنا، ماذا لو أخفقنا في التقاط طريدة..؟ لو كنت كلب صيد لكنت ميتاً من زمن بطلقة بندقية، وأساساً لا أحب ندالة كلب الصيد، أحببت كلبة صيد سلوقية مرّة، هي حنونة وناعمة لكنها نحيلة وخبيثة، إياك أن تحبَّ كلبة صيد، فهي سرعان ما تهجرك وتذهب مع أول كلب تراه أقوى منك.

الكلب الهرم كان ينام كثيراً وهذا ما يحدث لي الآن، كنت أكلّمه فلا يرّد لأكتشف أنه نائماً، فأنبح لأوقظه، يفتح عينيه بكسل ثم ينفض رأسه مصفّقاً بأذنيه ويقوم ببطء ثم يسألني ماذا جرى هل مرَّ أحد من هنا..؟

قلت له: يا أخي أنا أحبك وأتمنى أن تبقي هنا، لماذا توقفت عن أداء عملك؟ فتح عينه على وسعهما وسألني: ماذا تعني..؟

قلت: لم تحاول أن تختبئ متدارياً بالشجرة، وتغمض عينيك متظاهراً بالنوم عندما تلمح أحد أفراد البيت قادماً...؟ ولمَ توقفت عن النباح..؟

قال: ولماذا افعل ذلك... لماذا..؟ فهذا لم يعد عملي.

قلت: كثير من البيوت فيها أكثر من كلب... ربما هم يريدون بقاءك.. وسيؤمنون لك برميلاً آخر..

زغللت عيناه، فتح فكيَّه ثم قال: هل يمكن أن يفعلوا ذلك.

قلت: ربَّما.

الكلب الهرم عاد ينبح، إن مرَّ غريب أو شمّ رائحة قطّة أو ابن آوى، يرفع رأسه قليلاً وببطء ويبدأ النباح، نباحاً رخواً ممطوطاً، أحياناً يفعل ذلك وهو مغمض العينين، ينبح نبحتين وكأنه يحلم: هو هــ... ــاو... هــ.......ــا ــو، يحرّك فكيّه بتراخ ويعود ليزلق رأسه بين قائمتيه الأماميتين ويغمض عينيه.

لا يمكنه أن يخرج من حالة اليأس والحزن التي تملّكته، فكّرت أن أقترح عليه القيام بعمل آخر، لكن ما العمل الذي يستطيع القيام به..؟ فهو بالكاد يستطيع النباح.

صباحاً وبعد عدّة أيام اقترب منا ربُّ المنزل واتجه إليه، ارتعد الكلب الهرم، انبطح أرضاً وبدا يعوص ويشمشم الأرض عند أقدامه، ربّ المنزل فكّ سلسلته بهدوء وتركه.

قال لي بأسى: أرأيت..؟ إنه يريدني أن أذهب.

قلت: ربما يريدك أن تكون حراً... لم تفَّسر كل شيء وكأنه ضدك..؟

قال: أنا أعرفهم وأفهمهم أكثر منك، هم يقولون في أنفسهم أنه لا بد لي أن أذهب عندما أجد نفسي طليقاً، و أؤكد لك أنه لولا

ابنه الصغير الذي يحبَّني وكان يلعب معي قبل مجيئك لكنت ميتاً الآن بطلقة بندقية، كنت أرى التعاطف معي في عينيه عندما يقسو علي والده، أحياناً كنت ألمح دموعاً لم يحسّ بها أحد غيري.

قلت: نعم.. نعم إنه ولد طيب، ما رأيك أن تتجوّل حول البيت وتشعرهم بأهمية وجودك، يعني أنا أعمل هنا أمام البيت في البرميل وأنت تتجوّل، من وقت لآخر تبَّدل موقعك.

قال: فكرة... فكرة عظيمة، وقام بتكاسل، دار حول المنزل ببطء، ليعود ويقعي مكانه.

لم أنم تلك الليلة في البرميل، الكلب الهرم اقترب ونام جانبي، اقترحت عليه أن يقضي ليلته في البرميل، ويخرج فجراً قبل استيقاظ صاحب الدار، لكنه رفض.

في الصباح قام بجولة أخرى ثم اقترب وقال: اصغ إلي، عليك أن تعرف طباع أفراد المنزل، سأختصر عليك التجربة وأصفهم لك:

صاحب المنزل عصبي عليك تجنبه في حال انزعاجه لأنه يكون فظّاً وقاسياً، أما صاحبة المنزل فهي هادئة ولا تؤذي، ابن صاحب البيت الكبير أرعن وقاس عليك أن تبتعد عنه، الولد الأصغر منه يحبّ اللعب معك ويعذبك أحياناً، ابنة صاحب البيت لا تقترب منك أبداً ولا تكترث بك، أما الولد الصغير فهو جميل وحنون، عليك أن تعرف هذا وتحسن التصرف.

- نعم.. نعم، شكراً لك.

نظر الكلب الهرم إلى البعيد وطفرت من عينيه دمعتان أدار رأسه محاولاً مداراتهما، ثم قام وابتعد ملتفاً حول المنزل، استغرق وقتاً طويلاً حتى عاد، استلقى بصمت خبَّأ رأسه بين قائمتيه ونام. كنت أسمع من وقت لآخر عويل خافت ومتقطع يصدر عنه، كأنه كان ينشج.

في تلك الليلة اقترب أبناء آوى أكثر من المعتاد وهم يعوون ويطبحون، قال الهرم بهدوء: لقد حذرَّتك من الكلبة السلوقية، وعليك أن تكون أكثر حذراً من بنات آوى، إنهن جميلات ومغريات لكنهن ماكرات، فيهن شيء غريب لا تدري ما هو يجذب الكلاب إلى المغامرة معهن، لكنها مغامرة خطيرة، هذا ما حدث معي حين استدرجتني إحداهن، فمضيت معها مسافة بعيدة وفي لحظة مباغتة انقض عليَّ أولاد آوى وأشبعوني عضاً وتهشيماً، بينما كانت الماكرة تقف بعيداً وتنظر إلي بسخرية بعدما أخذت ما أرادته مني. أعود وأنبِّهك من الكلبات وبنات آوى كي لا تنتهي كما انتهى حمار صاحب البيت وقد كان صديقي، المسكين رأى حمارة حلوة وجذابة تقف هناك على الجسر، تنظر إلي الماء تلوح بزيلها وتميل مؤخرتها بشكل مُغرٍ، رفع رأسه وانتصبت أذناه ونهق، فنهقت بنعومة ودلع، ضرب حافره بالأرض وانحدر إليها. وفي اللحظة التي اشرأب ليقفز عليها زاغت منه فسقط في النهر. الماكرة لم

تكلف نفسها النظر إليه وصاحبي تكسَّرت قوائمه، وأنت تعرف أن الحمار إذا انكسر راحت عليه..

انتبه.. لما أقوله لك كي لا تسقط في النهر... عليك دائماً أن ترى الحافة.. دائماً.. تثاءب الهرم، نفض رأسه فصفقت أذناه، نهض ومشى مسافة قصيرة لكنها عاد وقال: حاول أن تجد صديقاً، صديق دائم تراه ويراك وتتحدثون، الصديق أثمن من أي شيء، لو كنت أستطيع البقاء هنا أو لو كان في العمر بقية، لكنت صديقك.

قلت: أنت فعلاً صديقي.

لم يرَّد، لكنه نظر إلي بعنين مخضلتين، ومضى إلى خلف المنزل، فدخلت البرميل وأنا حزين وتمنيت لو أستطيع قطع سلسلتي لتركت هذا البيت وهربت، ربما يعود إلى شأنه.

آخر مرة رأيت الكلب الهرم قال لي: عليك أن تعرف أن أمامك خياران فقط في حياتك هنا، إما أن تطيع ربَّ المنزل صاحبك، طاعة عمياء، أن تكون شرساً مع من يكره وتحب ما يحب وأن تكون سمحاً ودوداً وتتمسح به، وإن لم تكن كذلك عليك أن تهرب في أي فرصة متاحة لتعتاد حياة التشرد.

لم أدر كيف ذهب الكلب الهرم، كان قد نام بالقرب مني لكني استيقظت ولم أجده، بالتأكيد ذهب بإرادته، لو كان الأمر بخلاف ذلك لكنت استيقظت على الحركة، لقد انسل ليلاً واختفى إلى الأبد.

لمدة يومين كنت أشعر أنّه قريب مني وأني تحت نظره، ربّما كان يقعى في الحرج المقابل للمنزل، خُيِّل إلي، لا بل أنا متأكد أني سمعت عواء خفيضاً، شنّفت أذني، إنه هو، عويت له ورجوته أن يعود لكني لم ألق جواباً.

أخذت بأغلب نصائح الكلب الهرم، غير أني وقعت في حبّ كلبة سلوقية مثيرة ومخاتلة ولم أتذَّكر ما قاله لي إلا بعد أن هجرتني مع كلب مشَّرد كريه الرائحة، غريب أمر الكلبات...! كذلك استدرجتني ابنة آوى في ليلة صيفية مقمرة وما زال في جسدي ندوباً من نهش أولاد آوى، وأذني اليمنى مشرومة.

أنا الآن خارج البرميل، أنتظر أن يأتي كلب فتي، لا أدري ربما سأقدم نصائحي له وربما لا، كل ما أرجوه أن يدعوني أذهب، يبدو لي أن ما قضيته هنا مذ كنت كلباً فتياً إلى الآن لا يتعدى حلماً.

تطاول الكلب الهرم برأسه ونظر إلى البعيد، إلى الدغل المقابل، وعوى عواءً حزيناً.

* * *

حاف تماماً

لأن فردة حذاء لا تجدي وهي أسوأ من أن يكون حافياً قذفها إلى البحر، عبرت الانقشاع الباهت لمصابيح الكورنيش ونفذت في الغبش، عادت تتهادى على تثنّي موجة، لم تصل إلى الشاطئ، فقد استدرجها رجع الماء إلى العمق.

الفردة الأولى انتهت في البحر أيضاً، قبل ساعة أو أكثر كان يقف أعلى سلّم الباخرة متعباً ينوء بما علق بجسده من دبق الرطوبة وهبالة السكر، ثلاث عربات محملة بأكياس السكر ما زالت تقف على الرصيف، تداعت إلى ذهنه تلك الخواطر التي تحيل الأشياء إلى تاريخها، متى فكّر الإنسان باختراع الأكياس..؟ وما هي علاقتها بالتاريخ؟

خمس سنوات مضت على تخرّجه ولم يتخلّص من تلك العادة، فكّر: يمكننا اعتبار الخرج كيساً والجراب أيضاً، إذا صحّ ذلك فلا بد أن ثمة علاقة لكنها ليست واضحة، فالكيس لم يسهم

في التطور كالعجلة أو المغزل والفؤوس. ولم يؤثر في حركته كالسيوف والرماح والبلطات التي تطوّرت من الحجر إلى الحديد إلى البرونز.

ما فائدة التاريخ هنا...؟ عندما استلم بطاقة العمل وقرأ عليها صفة (كاتب) انتابته نوبة ضحك جعلت المراقب يكشّر. ليس مطلوب منك أن تكتب أكثر من عدة كلمات وأرقام، عدتك قلم وورقة كأي كاتب، لكن عملك هو عدّ الأكياس في الدستات وهي تخرج من عنابر الباخرة وتتدّلى في الهواء لتستقر في القاطرات وعربات القطار وتسجليها.

على الرصيف مشى زملاؤه باتجاه موقف الباص، تحرّك ليهبط سلَّم الباخرة، ربما أدى استعجاله إلى انزلاق قدمه وانفلات فردة حذائه اليمنى، تعثرَّ وترنَّح بالكاد تمالك نفسه من السقوط، انحنى يبحث عنها من نقطة وقوفه إلى الدرجة الأولى التي تلامس الرصيف، وسَّع بحثه حول السلم ولم يجد شيئاً. أطلق سائق الونش بوقه فرفع بصره إليه، رآه يشير بيد مقلوبة إلى حافة الرصيف، اقترب وانبطح على بطنه حشر بصره في الحيز الضيق المعتم بين الباخرة والرصيف لم ير شيئاً، فقط سمع خفق الماء و ضغطت على نفسه رائحة ملوحة زنخة.

نهض، ختم بحثه بنظرة يائسة وتأكّد أنه لن يجدها وعليه الإسراع ليلحق الباص، خطر له أن يسأل رئيس المجموعة إن كان لديه حذاء احتياط.. لكن عدل عن ذلك فهو يعرف أنه لو كان مكتبه مملوءاً أحذية لن يرمي له واحداً، لم يلحق بالباص لأنه تأخّر ربع ساعة.

لم يكن في جيبه سوى مئة ليرة، وهي لا تكفي أجرة سيارة ولا ثمن حذاء من البالة، هل يمشي إلى البلدة..؟ عشرون كيلومتراً في حال كان ينتعل حذاء تستغرق أربع ساعات، وفي حالته هذه كم ستستغرق..؟ سيصل صباحاً، وما الفائدة إذا كان لا يملك حذاءً آخر، ولا ثمن حذاء.؟ أو يقضي الليل عند أحد معارفه..؟ لن يدعهم يرونه حافياً، غداً يستدين ثمن حذاء أو يدَّبر حاله.

لو يجد من يعيره حذاءً أو يلقى واحداً عتيقاً يقضي حاجته لا بُدَّ أن يشتري حذاء هذه حقيقة إلا إذا وجده مقبولاً، لكن أين سيبحث في هذا الوقت...؟

في أوقات كثيرة رأى أحذية مرمية قرب حاويات القمامة، كان ينظر إليها وينهض في ذهنه شكل صاحبها من قدميه صعوداً، وقرب ورشات العمل مدعوكة ومقطعة استنفدت كل صلاحيتها.

في تنقّله كان يراها مبعثرة على الطرقات السريعة كدلالة على الإصابات الناجمة عن الحوادث وعلى الموت خاصة فلا أحد يهتم بحذاء ميت.

لو يجد أياً منها، يستخدمه حتى الصباح فقط، بحث في ساحات المرفأ لكنه لم يحظ بحذاء عتيق أو حتى بفردة مهترئة. اتجه إلى باب المرفأ الرئيسي، خرج بفردة واحدة وجراب أسود مَّوه به قدمه الحافية واتجه يساراً ليأخذ شارع المينا.

توّقف، رفع قدمه الحافية قليلا ثم نقل فردة الحذاء إليها، ضايقه احتكاكها بالأرض وآلمته حصاة داس عليها، لكن الأمر أصبح أسوأ بقدم محشورة في فردة معكوسة، وأخرى حافية فأعادها، ابتعد عن الضوء ولاذ بالجدران لكي لا ينتبه إليه العابرون القلائل في ليل قارب منتصفه، بحث في أماكن رمي المخلفات، توقّف عند باب الجامع، قد يكون أحدهم نسي حذاءه أو ربما تركه، لكنه لم يجد شيئاً.

بدّل فردة الحذاء مرات بين قدميه ثم خلعها ووضعها تحت إبطه وانعطف في نهاية شارع المينا باتجاه الكورنيش البحري بعد مسافة عمودي كهرباء جلس يستريح.

تناولها وقلبَّها، عاين نسبة تآكل النعل ومتانة الجلد المكرمش، واستنتج أنه كان من الممكن أن تستّمر في الخدمة لثلاثة أشهر على الأقل لكن ما الفائدة..؟

كانت لتنفع لو استطاع رفع قدمه عن الأرض والجمز على قدم واحدة، لكنه سيلفت النظر أكثر ولن يقدر على الاستمرار في ذلك سوى لمسافة قصيرة، إنها أسوا من لاشيء ولذلك رماها.

كثيراً ما رأى نفسه حافياً في الحلم، إنها دلالة فقر، هذا تفسير أمه، كان شعوره أقسى وأمرّ، مزيج من الخوف والخزي، كان يلمّ قدميه ليخفيهما عن الناس، هذا ما يقلقه الآن، لولا ذلك لمشي حافياً متى شاء، هو الآن في حالة أخف وطأة من الحلم.

من الحكمة أحياناً أن تصل بأمر ما إلى أقصاه، وهذا ما فعله بقذف الفردة الثانية بعد أن فقد الأولى، لم يكن في ذلك شيء من الحنق أو التبرم، بل تسليم بحالة أضحت واقعاً، يمكنه الآن أن يضحك ويضحك، وليكن هو مجرد حذاء وذهب إلى البحر...!

نزل عن الرصيف، وطأ الأرض المفروشة بالحصى بحذر وتؤدة، عندما وصل إلى الشريط الرملي للشاطئ، خلع جوربه المثّقب من الأسفل ووضعه في جيبه، لا بدّ أن يحفظ ما تبقى منه، لأنه إن أبقاه في قدميه سيتمزق، سيحتاجه في الصبح لمحاولة إخفاء قدميه الحافيتين.

جلس، مدَّ ساقيه وتمعَّن في قدميه، هي المرة الأولى التي يدقق بشكلهما، أظافره طويلة ومتآكلة الأطراف، غمغمت زوجته في رأسه: ابعد قدميك عني، ثنى ساقيه بحركة لا شعورية وكأنه

في السرير، يجب أن تقصّ أظافرك لأنها تكاد تجرحني، فعلاً يجب أن يقصّ أظافره، سيفعل ذلك في أقرب فرصة، لم يكن يهمل نفسه هكذا، يجب أن ينتبه لنفسه قليلاً.

أصابع قدميه كبيرة وإبهامه يميل للضخامة يتجّذر في عقدة ناتئة تغطي بروزاً عظمياً، كثيراً ما استغرب وجوده، هذا ما دفعه لمراقبة أقدام البشر حوله فاكتشف أن لكل ابن آدم قدميه الخاصتين وليست هناك أقدام تتطابق مع أخرى مهما بلغ التشابه بينها، فالعقدة النافرة في قدميه موجودة عند الكثير من البشر، الأقدام كالوجوه، تتشابه لكنها لا تتطابق، ثمة أقدام لا يمكن نسيانها، كيف لإنسان أن ينسى قدمي أبيه، أمه وحبيبته، أو أي شخص ترك أثراً في حياته، الأقدام معلم وهويّة تطبع أشكالها وأثارها في الذاكرة.

قدما أبيه كانتا متورمتين ومشققتين نتيجة العمل المجهد والأمراض، من يراهما بمعزل عن صاحبهما سيقدر تعبه وعذابه، قدما أمه صغيرتان وتميلان للامتلاء، فيهما طيبة وخضوع.

في الثانوية اكتشف أن القدمين ليسا للسير فقط، نقلة قدم مدرسة اللغة الانكليزية كانت هينة ومتسقة، لكنها لم تكن مشياً فقط، كانت لغةً لأنوثتها تجد سبيلها للتعبير عبر أقنومين من حرير وعاج.

أصابع قدمي وفاء متناسقة بشكل جميل، عنوان لهوسها بترتيب كل شيء، بينما قدما هناء رقيقتان بيضاوان مشرّبتان بالحمرة، صلفتان كصاحبتهما، قدماها زوجته تشبهان بطن حمامة، لا يدري لمَ ذكرتاه ببطن حمامة اصطادها يوماً ما بالخطأ.

الأقدام دلالة للخوف والألم أيضاً، قدما إياد المرفوعتان تجلدان لمخالفة ارتكبها في الخدمة، صراخ إياد يرتبط أبداً بأقدام محزومة ومرفوعة، والموت ارتبط في ذاكرته بالأقدام، قدما ذلك الشخص الذي صدمته سيارة والذي سجى إلى جانب الطريق، وقد غطوا جثّته لكن الغطاء انحسر عن قدمين منكمشتين شاحبتين ومتعاكستي الاتجاه، ربما لتهشم الساقتين. القدم مجس أيضاً، فقد رأى كيف ميَّز ذلك الأعمى الذي عاد من الأرجنتين أراضي القرية، كان يخلع حذاءه يجمع أصابع قدميه على ما تحوشه من تربة الأرض، يتحسّسها بصمت ثم يقول: هذه أرض المراح، وينتقل إلى أرض أخرى.... وهذه الحجيرات، للأقدام لغتها أيضاً، فوقعها كالنداء أو الصراخ أو القول العادي والهمس. قدما ناديا كانتا توقعان تناغماً مفعماً بالدلال والأنوثة، وقدما صفاء لجوجتان لكنهما لا تخلوان من دعوة ما، من سرّ ملغز على شفا البوح ويستعصى ذلك، قدما عادل كانتا واثقتين، يوسف لا وقع لقدميه، فقط ما يشبه الحفيف الخبيث.

مشى إلى الكورنيش، توقّف، تلفّت شمالاً، وجنوباً، الشمال يعني العودة إلى المرفأ والانتظار إلى الصباح، الجنوب يعني أن يمشي إلى طرف المدينة، مسافة كيلو مترين، وقد يجد حذاءً.

بخطوات قصيرة وحذرة اتجه جنوباً، لم يخطر له يوماً أن يفكِّر في ذلك التضامن بين فردتي حذاء وبالمعني المتطابق والموزع بينهما. الفواصل بين بلاطات الرصيف آلمته فنزل إلى الشارع، الإسفلت أرحم، أثره يتفاوت من الوخز إلى الدغدغة، تحوَّل بعد مسافة إلى ما يشبه الشعور الذي يخلفه الهرش، ثم بدا وكأنه خدر مشوب بألم خفيف. رغم ذلك هي حالة توازن في المشية والوقفة والتفكير، حاف تماماً أفضل من نصف حاف التي يظلّ بها الجسد مرتبكاً والدماغ مشوشاً، أنصاف الأشياء دائماً هكذا أكثر سوءاً.

المارّة والمتنزهون في منتصف ليل تشريني لم يثر انتباههم رجل حاف يمشي ببطء ويتلفّت حوله، إنها مدينة ولذلك يمكن أن تحوي كل شيء، العقلاء والمجانين، المتحفظين وأصحاب المزاج، يمكن أن يكون الرجل أحدهم، هناك من ينذر أن يمشي حافياً إلى مزار أو مكان مقدّس زلفى وكرمى لأمر ما وهناك من يفعل ذلك حنيناً وتوقاً لما سبق.

كيف كانت الأقدام قبل الأحذية؟ ومتى فكَّر الإنسان بحماية قدميه؟ فكّر بكتاب عنوانه تاريخ الحذاء، أحذيته يمكن أن تشكَّل علامات على مفاصل حياته. أول حذاء يتذّكره كان في الثالثة، لم ينم فرحاً بعدما جلبه أبوه له، وضعه تحت سريره تفقَّده وجرَّبه مرّات خلال الليل. ثم حذاء المدرسة، الصّف الأوّل الذي ارتبط بالمريول ورائحة الكتب حديثة الطباعة والخريف.

وحذاء الصف الثالث الذي لا ينساه، فقد أصرَّ أبوه على أن ينتعله ليقطعَّه قبل أن يضيق، طلبت منه المعلّمة الخروج إلى السبّورة، مشى عبر المقاعد وعندما وقف أمام زملائه، نظرت إلى حذائه وقالت: حذاؤك يطقطق، انسكب عليه خجل لزج، ولم يعد لانتعاله مطلقاً، فكل زملائه كانوا ينتعلون الأحذية البلاستيكية، ذلك ما جعله خجلاً لأنه شاذ عنهم. ثم أتت أحذية المراهقة والشباب، المغامرات والعشق، فهو إلى الآن يتذكر الحذاء الذي كان في قدميه عند مقابلته لمن أحبّ.

اصطَّفت في ذاكرته أحذية أخرى، بوط الرياضة، بوط الفتوة والبوط العسكري بآثاره التي من الصعب أن تبرح الذاكرة، حذاء جارهم أبو شامة وحذاء مدرس الفيزياء الغريب، وبوط قائد الكتيبة الملمّع دائماً بشرائطه الكثيرة والذي كثيراً ما أشار إليه بتهديداته، غريب أمر الذاكرة كيف تستعيد أشياء لا يبدو أن لها أهميَّة في حياتنا..! كيفت أصبحت الآن مثل خزانة أحذية.

مشيته أضحت أكثر يسراً على الشريط الذي تركته عجلات السيارات في الإسفلت وجعلته أكثر نعومة، صقلته وكنسته من الحصى والأشياء الصغيرة، من وقت لآخر كان يصعد إلى الرصيف ليفسح المجال لسيارة عابرة ثم يعود، يراقب أحذية المارة القلائل ويخمّن أي منها يمكن أن يكون على مقاسه، لم يعد يحسّ بألم أو بهرش وكأن قدماه تصالحتا مع وضعهما الجديد، ظهرت أمامه سيّارة شرطة يقف بجانبها شرطيان ينتعلان جزمتين.

لو يعيرني أحدهم حذاءه.. قال لنفسه، عندما حاذى السيّارة استوقفه شرطي، طلب هويته وهو ينظر بريبة إلى قدميه الحافيتين.

أخرج هويّته وهو يقول بتلعثم: لقد أضعت حذائي، هل أجد لديك حذاءً زائد..؟

الشرطي لم يجب، نظر إليه شذراً، توقفت عيناه على قدميه ثم قفز بهما إلى وجهه أعاد هويته وأشار له أن يمضي.

لو يحتجزونني إلى الغد في المخفر، لكن هذا ليس حلاً، فإن أطلقوا سراحي صباحاً سأمشي حافياً إلى السوق أمام الناس، قطع الكورنيش إلى الرصيف الآخر وقفل عائداً.

الشرطي محظوظ لأنه يملك حذاءين، واحد للخدمة وآخر مدني، كذلك الجنود، في حالة كهذه يمكنهم استعمال الحذاء الآخر، أغلب الموظفين أمثاله يملكون حذاءً واحداً، لا بد أن رئيس

المجموعة يملك حذاءين، ورئيس الدائرة يملك ثلاثة، أما المدير العام فهو يملك على أقل تقدير عشرة أحذية، والوزير... يا لها من متواليةً... الحذاء دلالة على الوضع الاجتماعي والوظيفي.... وهو عنوان الأناقة أيضاً ودلالة عليها أكثر من الرأس.

أصبحت مشيته طبيعية، نسيَّ أنه حاف ولم تعد قدماه تؤلمانه، يبدو أنها حالة مريحة عندما تعتادها. اليابانيون يقولون (حذاء مريح، تفكير سليم) وإذا لم يكن هناك حذاء..؟ هل يصبح التفكير أسلم أم منفلشاً..؟

لم يعد يكترث إن رآه أحد أم لا، لكن التعب بدأ ينكأ جسده والنعاس يسري من رأسه إلى جفونه شحنات قسرية ضاغطة، بالكاد وصل إلى ساحة المجموعة قدّر أنه بقي للصباح أربع ســـاعات.

خارج الضوء افترش صحائف كرتونية ونام، في الحلم رأى نفسه ينتعل أحذية مختلفة وكان فرحاً بها، ثم رأى أنه يثب حافياً على زجاج مكسّر، قبل أن يكمل وثبته استيقظ.

بلغت الساعة السادسة صباحاً، ساعتان وتبدأ ورديته، مشى إلى حيث أضاع فردة الحذاء، أين اختفت..؟ تساءل وهو يعاين سلّم الباخرة، اقترب من الحيز الحاصل بينها والرصيف، لم ير شيئاً.

كان على وشك الانصراف عندما رآها عالقة بالدولاب المربوط بالرصيف والمتدلي إلى الماء تحسباً لاصطدام البواخر. انحنى والتقطها بصعوبة، نهض وقلبهَّا بين يديه ثم ألبسها بقدمه اليمنى، خطا عدة خطوات، وخلعها، عاينها، كان من الممكن أن تخدم ثلاثة أشهر أخرى ولكن......

لأن فردة حذاء لا تجدي، وهي أسوأ من أن يكون حافياً تماماً. وهذا أمر تأكد منه، قذفها إلى البحر.

* * *

حركة راقصة

لم يدم المشهد سوى ثوان، الرجل الوحيد الذي يسكن البيت المغلق الواقع في وسط الحي، الرجل الصامت شوهد يرقص بالخنجر.

لم تسمح مساحة النافذة برؤية كامل جسده، ثلثه الأعلى فقط، شوهد يرفع يده اليمنى شاهراً بها الخنجر رأسه يميل إلى اليمين قليلاً وعيناه نصف مغمضتين، دار على نفسه ويده اليسرى ممدودة، ليس إلى مداها بل كجانح هضيم، أسبل جفنيه كيوغي متأمل وهوت يده بيسر انزلق إلى الأسفل واختفى من المشهد، استمرَّت موسيقى كلاسيكية رخيمة تنبعث بصوت عال من داخل المنزل.

الوحيد الذي اجتاز البوابة المشرعة هو البقّال، هي المرّة الأولى والوحيدة التي عزم فيها على زيارته والاطمئنان عليه، أو ربما فعل ذلك تحت وطأة الفضول، رآه من النافذة التي انفرجت

ستارتها، لماذا وقف خلفها؟ لا يدري.. هل ليرقب الخارج أم ليتأكّد من شيء ما..؟

في تلك اللحظة تراجع إلى الوراء وأغلق البوابة ثم أعادها مواربة، تذكّر أن الرجل يتركها منذ فترة مفتوحة منتظراً قدوم أحد ما، قبل ذلك كان يغلقها فور تخطيه عتبتها وكأن ثمة من يطارده، ينظر إلى القفل ليتأكّد من ارتاجه ويدخل. صعد الدرجات الثلاث المؤدية إليها، سمع موسيقى بصوت عال، وقف على عتبتها ورآه في حالته تلك، لم يكن أمامه مباشرةً بل شاهده من انفراج الستارة خلف النافذة يرقص بالخنجر. لم يصدق عينيه ولكن هذا ما جرى، لم يرغب بالتطفل عليه....... قال ذلك وأراد أن يكمل غير أن أستاذ المدرسة الذي كان يستمع إليه باستغراب قاطعه قائلاً: أرجوك رجاءً شخصياً لا تخبر أحداً بذلك.

- كما تريد، لكن لماذا كان يفعل ذلك..؟

- لا أدري.. لا أدري... ربما كان يصلح شيئاً ما أو يقطع..أمر غريب ربما كان في ضيق.

هزّ البقّال رأسه، استدار لينظر إلى المنزل من جديد، لم يستوعب كلام الأستاذ هل الضيق يجعله يرقص بالخنجر.

السور العالي يضمَّ وحشةً وغرابة تخرج من إساره شجرتان، تفيض على حوافه وتدَّب من شقوقه إلى الخارج نباتات العليق بأزهارها البنفسجية الكئيبة، يحتضن البيت ويحجبه عن الرؤيا إلا جزأه العلوي حيث تظهر الحجارة الصفراء وأفاريز النوافذ الزرقاء الطولية والستائر الداكنة، حديقته غير مشذَّبة التفت شجيراتها وورودها مكتنفة زوايا مظلمة تضطّجع فيها قطط خمولة، بوابة الحديقة مصمتة لا تسمح برؤية ما في الداخل.

معالم المكان تدّل على توقّف تأثير الإنسان فيه منذ زمن بعيد، تشبه معالم الرجل، فهو يبدو كشجرة داهمها اليباس، كجذع متخشّب هرم انفصل عن أصله ومضى.. مظهره مشّوش ومهمل.. فوداه طويلان، كاهلاه ناتئان يبدو قميصه وكأنه معلق عليهما، وجسده ناحل، عيناه حزينتان ترنوان بنظرة متأملة ومتأنية، قليل الكلام.. ومن الغريب حقاً أن يرى وهو يرقص بالخنجر.

الرجل الغريب لا يليق بهذا العمل، هذا ما قاله أغلب من سمع بالخبر فالبقَّال لم يستطع كتمان ما رأى. قالوا لا يمكنه أن يفعل ذلك فهو وقور وهادئ، هزيل إلى حد يبدو وكأنه سيتقصف عند أية حركة قوية، وهذا عمل أولاد ثم من أين أتى بالخنجر...؟ ربما هي سكين مطبخ أو سكين مكتب يفض بها المغلّفات وربما لعبة على هيئة خنجر، ولم يرقص بالخنجر في الداخل..؟ ما

غايته من ذلك..؟ حيٌّ عجيب أهله بارعون بتلفيق الأكاذيب، هل من المعقول أن يرقص رجل عجوز بالخنجر؟.

في هذه المدينة لا يعرفون الرقص بالخنجر، قد يكون تعلّم ذلك في مدينته التي قدم منها في زمن لم يعد يذكره أحد، زمن هامشي إمَّا أن الناس كانوا فيه نياماً أو أنه دخل في غفلة عنهم وصار من شخصيات الحي بعاداته اليومية، يخرج صباحًا يغيب ساعتين ثم يعود ويخرج ثانيةً مساء ليبدأ جولته المعتادة يمشي بتحفظ من طرف الكورنيش الجنوبي إلى طرفه الشمالي ثم ينعطف شرقاً باتجاه بساتين الليمون ثم جنوباً لينتهي في منزله من جديد.

كل شيء كان رتيباً في حياته، جولاته اليومية، طعامه، ساعة نومه واستيقاظه، جلوسه في الحديقة في ساعة معينة وزاوية لا ترى من الخارج، يقرأ في كتب بأغلفة متشابهه أو جرائد تغطي وجهه أو يستمع إلى راديو قديم، يشرد وفي الأيام الدافئة ينام على الكرسي.

أستاذ المدرسة هو الوحيد الذي يزوره من وقت لآخر يدخل وهو يحمل كتاباً أو مجَّلة يبقى عنده وقتاً قصيراً ويخرج وهو يحمل كتاباً آخر، عندما سمع كلام البقَّال رجاه ألا يخبر أحداً تابع سيره وهو يتمتم: لا يعقل أن يفعل ذلك، هناك غرابة

في الأمر، كان يجب ألا يراه أحد، فهذا الحيّ يحول الألم العميق إلى هذر، بالتأكيد هو حزين جداً، في الفترة الأخيرة بدا ككتاب عتيق مهشَّم وممزق، جولته الأخيرة استغرقت وقتاً أكثر من المعتاد كان يمشي خطوتين.. ثلاث.. ويتوقّف يتأمّل ما حوله ليكلَّم المارة يسألهم أسئلة لم يفهموها ثم يتابع سيره.

الرجل العجوز تغيَّر بشكل واضح مؤخراً، مشيته غدت أبطأ، خطواته قصيرة، يتلفت حوله بتمهل ساحباً مع تلفَّته نظرة كسولة، صار يجوب شوارع وأزقة الحي، يحيّي كل من يصادفه.. يصرُّ على شراء جريدة ويعود، لكنه لا يقرأها، يستلقي على سريره ويفتحها، ما إن يقرأ عدة كلمات حتى يغفو تسقط وتبقى أحياناً تغطي وجهه، لا يمكن تحديد ما اعتراه، ودفعه لفعل ذلك، السأم، الفضول، أو ذلك الشعور بالنهاية التي تدفع العجائز للاحتكاك أكثر بالدنيا.

الرجل الغريب لم يعد يغلق بوابة البيت، يدخل منزله ويتركها مفتوحة من المحتمل أنه ينتظر أحداً ما، يبقى خلف النافذة وقد أزاح ستارتها قليلاً ينظر إلى المدخل بقلق وتوتر.

هناك علائم أحسّ بها كل من رآه، تلك الالتماعة الخفيفة الطارئة في عينيه والحيوية الهادئة التي انعكست على ما حوله حتى نباتات الحديقة أصبحت تتمايل بارتباك والقطط صارت متوتّرة

وعصبية، تتحَّرك في أرجاء الحديقة تنطُّ وتموء. لم يعد يدخل مقطباً وشارداً بل مستبشراً يحمل حاجيات وطعاماً لم يعتد شراءها.

استأجر امرأة نظّفت له البيت، قالت: كل شيء مرتب لكن لا يمكن إزالة رائحة الأشياء العتيقة.

البقَّال قال: صار يلقي التحية وهو يبتسم ويشتري أشياء لم يشترها من قبل، لاحظت أنه أصبح يترك البوابة مفتوحة، في ذلك اليوم لمحته يلوح خلف النافذة ثم رأيته يرقص بالخنجر.

الزَّبال قال: البوابة ظلَّت مفتوحة أياماً ولياليأً عدة، كان يخرج يغيب ساعة ساعتين ويتركها مفتوحة، لكن لم يتخطاها أحد حتى أستاذ المدرسة الذي اعتاد زيارته لم يفعل لانشغاله، الأولاد الفضوليون الذين كثيراً ما جذبهم ذلك البيت وجعلهم يتسلقون سوره ليروا ما في الداخل، كانت تخيفهم الزوايا المظلمة فيهبطوا جزعين، لم يخطر لهم أن يتخطوا البوابة المفتوحة أيضاً.

بدأت تتناهى من داخل البيت أصوات موسيقى، وأغان قديمة تستمر حتى الفجر، لكن قلّة هم الذين سمعوها، دورية الشرطة والزَّبال الذي سمعها في هدأة الليل، قالوا منذ زمن لم نسمع هذه الأغاني الجميلة، من النادر أن تجد من يملك تسجيلات لها وقد ذكرَّتنا بمطربين لم نعد نسمعهم.

الرجل الغريب انتفض كمن كان في سبات ونهض ليرّتب فوضى ما حوله، بدأ بالمنزل من الداخل ثم الحديقة، فقد سمع المارة أزيز منشار وطرقات فؤوس ثم أخرجت مخلّفات تقليم الأشجار وتشذيب الورود إلى رصيف الشارع، جذوع مشّققة وأغصان هرمة كوم من أوراق الأشجار الصفراء وأخرى متعفنة، علب صفيح صدئة، أكياس ممزقة، أسمال ثياب وقطع زجاج وأحجار كان يقذفها الأولاد، رحلَّت كلها بشاحنة صغيرة نظّف الحديقة كلَّها بشكل أتاح لكل نبتة وحبة تراب أن تتنفس. أعاد طلاء بوابتها باللون الأزرق، شوهد عدة مرات يجلس في الشمس أو يسقي نباتات زرعها حديثاً، أصبح يخرج إلى الشارع أكثر وقد حلق ذقنه وشعره، يجلس على درجات بوابة المنزل ويكلَّم الذاهب والآتي يسأله عن اسمه وابن من وعمله، يمشي ببطء، نظراته فاترة وموزعة يبتسم ويتأمّل الأشياء حوله، كان يخلع عن بيته وعن نفسه تلك الكآبة والغموض الذي فصله عن الناس لكن ما الذي دفعه لذلك.؟

مع خواتيم الصيف على مشارف الخريف، بدأت تنكمش تلك السماحة في وجهه وحركاته عاد القلق يلبَّد ملامحه، يتلفَّت حوله كثيراً كأنه يتبّرم بضيق مبهم، يكرَّر الوقوف على بوابة المنزل في عينيه خيبة واضحة وحركاته كلها تشي برجاء تالف، اعتكف في بيته أياماً تاركاً بوابة الحديقة مفتوحة ومغلقاً باب المنزل.

عاد إلى جولاته القديمة، يتخطَّى عتبة بوابته يدخل إلى البقالية يقول لصاحبها: إذا أتى أحد ولم يجدني أرجو أن تبقيه إلى أن أعود. مظهره كان بائساً ذقنه طويلة وشعره منكوش عيناه غائرتان، كأنه صورة كالحة ومشقّقة لما كان عليه، يمشي خطوة.. خطوتين ثم يتوقّف ليسأل أحد المارة.. هل تعرف ابني هشام.؟ ثم يقصد مبنى البريد يستفسر إن كانت وصلت رسالة باسمه.

موظفو البريد تعاطفوا معه واعتادوا الأمر لكن ليس لديهم سوى جواب واحد، إيماءة من الرأس كان يفهمها بحزن.

المسافات التي كان يقطعها بدأت تتمدّد، قدماه قصرتا عن إرادته، بدأ يسري فيهما خدر يزيد يوماً إثر يوم، في رأسه تتزاحم وتتداخل أحداث مشوّشة ومبعثرة، يجلس لفترة طويلة على مقعد من مقاعد الكورنيش ثم يعود إلى منزله يمشي بانكسار، يمرّ أمام البقالية يرفع يده بتحية ذابلة ويسأل البقّال بصوت منخفض وبلهجة رجاء: هل أتى أحد أثناء غيابي.؟

يهرب البقّال بعينه منه ويجيبه بالنفي.

تباعدت أسئلته مع الأيام، لم يعد يوجهها لأي كان، ينتقي أشخاصاً متقدمين في السن ويسأل هل تعرف ابني هشام..؟ هل رأيت ابني هشام... هل مرّ من هنا.؟

قلّت زياراته إلى مبنى البريد لم يعد يسأل أحداً عن رسائل، فقط يمرَّ في بهو المبنى ويخرج بهدوء ليعود إلى منزله يدخل ولا يخرج ثانية.

لم يخرج العجوز في جولته المسائية وبقي بيته معتماً وكأن لا أحد فيه، حاول أستاذ المدرسة تخيَّله وهو يرقص بالخنجر كما وصفه البقّال لكن لم تطاوعه مخّيلته ولا صورة الرجل.

ضحى اليوم التالي عرَّج وهو عائد من المدرسة ليزوره، هاجس ملّح دفعه لذلك. منذ فترة انتبه إلى التغييرات التي اعترت المنزل، أخذ يفكّر بحياة الرجل وكآبته، حاول مراراً أن يجسّ ذلك السريان الهادئ والخفي لحياته الماضية والذي ما زال ينزّ إلى الآن حزناً وتشتتاً دون جدوى اجتاز بوابة الحديقة المفتوحة بشكل موارب، توقَّف فجأة وقد رأى خيط دم متخثر يخرج من تحت باب المنزل تكاثر عليه الذباب، كانت القطط تموء وتتمسح بالباب والأشجار ترتعش بقنوط.. شجيرات الورد مائلة وذابلة، وستارة النافذة المقابلة لبوابة الحديقة ما زالت تنحسر عن فراغ صغير شبه منحرف لا يبدو خلفه أحد.

الرجل الوحيد الذي يقطن البيت الغامض الذي فتح بوابته أخيراً للدنيا منتظراً أن يأتي أحد ما، شوهد يشهر خنجراً بيده اليمنى ويمدّ اليسرى كجانح عليل، يغمض عينيه ومسحة يأس وتسليم على وجهه، دار نصف دورة، هوت يده إلى الأسفل، وانزلق من وراء النافذة، استمرت الموسيقى الحزينة تنبعث بصوت مرتفع كأن المنزل يعزفها.

البوابّة المشرعة... الحديقة.... الأشجار.. القطط الخمولة والفـــراغ.

* * *

لا جواب للخوف

من وسط الباص تقريباً انبعثت صيحة مخنوقة، نفذت في الهدوء المقلقل على هدير المحرك. كانت عميقة وواجفة كنداء استنجاد أو بوح.

إنها الرحلة المعتادة للباص والتي يعبر بها المدينة من الغرب إلى الشرق، وبالعكس بخط هو الأبعد.

التوقيت، الساعة الثالثة والنصف ظهراً. أي في نهاية يوم عمل، لذلك كان الرّكاب في حالة من التعب والسأم خلّفت في نفوسهم السكون، بدأت الرحلة بلغط خفيف، ثم أدار السائق المسجل فزعق صوت مطرب شعبي لكنه أسكته على غير العادة، وساد صمت بشري مشوب بصوت دوران المحرك والأصوات النافذة من الخارج.

في وسط الباص تقريباً جلس شاب هادئ نحيف بعينين زائغتين، كانت له هيئة شخص شارد، بعد أن صاح بالكلمتين

حوّل نظره إلى الخارج، كان يرخي رمشيه من وقت لآخر بحيث يبدو أنه أغفى أو على وشك، انتظر الجميع أن يقول كلمات أخرى لكنه لم يفعل، لم يبدو عليه الإحراج، بل كأنه غير معني بما حوله، الرجل الجالس بجانبه ابتعد إلى طرف المقعد وصار ينظر إليه بطرف عينيه توجساً من أنه مجنون.

وضع رجل يده على مسدسه وشهقت امرأة، بكى طفل يجلس أمام الشاب، ثمة رجل يجلس في الخلف نهض ومشى إلى محاذاته، لكن الشاب لم يكترث به فعاد إلى مقعده.

تلفّت إليه الجميع، السائق خفّف سرعته ونظر إلى مصدر الصوت في المرآة ثم التفت للحظة فلم يتبيّن من نطق الكلمتين سأل : شو فيه ..؟.

لم يرّد أحد، علّق سرعة وانطلق، ظلّ ينظر في المرآة من وقت لآخر.

في أول الباص خلف السائق مباشرة جلست امرأة عجوز لم تستطع الالتفات إلى الخلف تمتمت بصوت غير مسموع ودمعت عيناها. في آخر الباص جلس شاب أطلق شعره يضع سماعات في أذنيه ويبدو منسجماً مع ما يستمع إليه. شخص قريب من مصدر الصوت يضع نظّارة يحتضن محفظة كتب ويقرأ في جريدة نظر إلى مصدر الصوت ثم عاد إلى القراءة بلا مبالاة.

الشاب الذي جهر بالكلمتين، يركب الباص غالباً في هذه الرحلة وينزل في الموقف قبل الأخير، يختار مقعده في الوسط يجلس ويشرد، يتمنّى أن يمضي الباص إلى البعيد إلى حيث لا مكان، لم تكن لديه رغبة في الوصول إلى مسكنه، وهو غرفة مستأجرة في أقصى شرق المدينة.

إنّه يوم عادي من حياته. ينتهي عمله في الساعة الثالثة تماماً، في تلك اللحظة تتراخى قبضة من الضيق عن صدره، يخرج من مكان عمله آملاً أن يعود غداً ولا يجد مديره الذي يهدّد ويتوّعد بنقله أو تسريحه، يخرج من الدائرة ويتجه إلى الباص بارتياح لكنّه يتذكّر أن جوّ الغرفة ليس أفضل من جوّ العمل، يفكِّر في كلمات صاحبة المنزل، لمدة ثلاثة أيام وهي تخبره أن هناك شخصين يسألان عنه. لا أحد يعرف مكان سكنه لا أقرباؤه ولا زملاؤه، من هذان الشخصان..؟ هل هما من....؟. لا .. لا لم يسألان عنه..؟ هل يعرفان ما يقرأه، أو ربّما ما يفّكر فيه، قد يكون للأمر علاقة بصديقه السجين السابق. فور وصوله إلى غرفته كان يقفل الباب ويستلقي على فراشه يترقّب أي نأمة تصدر في الخارج، لا يخرج إلا للضرورة.

أغمض عينيه لثوان ثم فتحهما، لم يجتز الباص حديقة ابن عساكر بعد، فيما مضى كان يلعب لعبة مضحكة. أثناء سفره يغمض عينيه لفترة طويلة ويجرّب معرفة المكان الذي وصل إليه.

يوسوس شعور في نفسه لا يستطيع الحدّ منه، التوجّس، وذلك القلق المبهم الذي يولده توقع النهايات الحاضرة في ذهنه أبداً، لأي شيء يقوم به أو يصادفه، يراه أو يسمعه، ربّما هذا ما جعل الخوف يدلف إلى حنايا نفسه.

أغمض عينيه، رمشت جفونه مرّات ثم سكنت، أرخى جسده على المقعد الجلدي العتيق ورأسه على الزجاج المرتعش.

سير الباص وهدير محرّكه المتواتر هدهدا نفسه بوداعة استعادها من طفولته من تلك الأوقات التي كانت فيها أمّه تشعل بابور الكاز لتغسل أو تطبخ فيفعل هديره المتأتي من تأجّج ناره فعل المخدّر. في اللحظة الدقيقة والمرهفة التي عبرها إلى الإغفاء تمنّى أن يتحوّل الباص إلى طائرة أو مركبة فضائية، هبة ريح، غيمة أو موجة عاتية تجتاز محيطات الأرض.

نام، ولم ينم وكأنه يسبح في فراغ، شعر بالزمن خمولاً طويلاً وأبدياً. نام، صدق أبوه حين قال له التعبان ينام على رجمة حجارة، تعبان ....؟ نعم.. نعم . يسأل نفسه ويجيب.

نام ولم ينم، ما زال هدير المحرك ولغط خفيف مبهم بين الحلم والواقع يدمدمان في أذنيه، ثمة أخيلة تتراقص أمامه، وجوه قامات متداخلة وجه مديره في العمل، وجه أستاذه في المدرسة

الابتدائية وجه صاحبة الدار، وجه رئيسه في خدمة العلم، شيخ الحارة وهو يلقي خطبة الجمعة مشدّداً على عقوبة تارك الصلاة ومحدّقاً في وجهه، سائق السرفيس السريع المتهور، البقال الذي انضّم إلى صاحبة المنزل وما فتئ يخبره منذ يومين أن هناك شخصين يسألان عنه، مذيع الأخبار الذي يتوقّع الحرب، شخص يوبخّه ويسأله أين هويتك، آخر يقطّب ويصرخ لم تأخرت، امرأة تهزّ مؤخرتها وتنظر في عينيه إن كان ينظر إليها.

انتفض الشاب وصاح للمرة الثانية: أنا خائف... أنا خائف.

في هذه المرّة كانت الصيحة أقوى وأوضح.

اشرأبت الأعناق من جديد، السائق صاح: يا عمي شو فيه..؟ هل نقف، نذهب إلى المشفى أو المخفر؟ لكن أحداً لم يجب.

سؤال واحد تردّد في ذهن الركاب، لم هو خائف ..؟ كانوا يعاودون النظر إليه من لحظة إلى أخرى والسؤال يلحّ عليهم، يبحثون عما يمكن أن يخيفه، ربما ارتكب معصية ما، قد يكون مطارداً، ربما هو مريض مرضاً خطيراً، أو قد يكون ارتكب فعلاً شنيعاً، بالتأكيد هناك من يهدده، قد يكون فقيراً وربما عليه دين يستوجب الدفع ولا يدري كيف سيسدّده، يبدو مثقفاً، من المحتمل أنه يخاف الموت، هو خائف من أحد ما لا شك، من

جاره أو مديره في العمل أم من البقّال، من اللحَّام، من المفتش حيث يمكن أن يصعد إلى الباص في أي لحظة، أو قد يكون خائفاً أن يفقد حبيبته.

أسباب كثيرة للخوف اكتشفها كل منهم في داخله، توقّفوا عن النظر إليه باحثين في ثنايا شعورهم، صامتين ساهمين، في عيونهم بدرت حيرة تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى خوف حقيقي لم ينتبهوا إليه من قبل، منهم من باح لنفسه وأسرّ: وأنا خائف. أنا خائف، أنا ...

السائق أوقف الباص، التفت إلى الوراء معيداً سؤاله شو فيه..؟ طالعته عيون مشتتة وشفاه جامدة.

ضغط دواسة المازوت شخر المحرّك، نظر في المرآة اصطفت فيها وجوه صامتة واجمة. ركّب سرعة وانطلق، شغّل المسجل زعق صوت المطرب الشعبي شارخاً ستار الصمت.

* * *

الفهرس

مفيد عيسى أحمد

- خريج جامعة دمشق – كلية الآداب – قسم المكتبات والمعلومات.
- صدر له سابقاً مجموعة قصصية بعنوان (ثلاثة نداءات وتصبح نجمة) عن وزارة الثقافة – الهيئة العامة السورية للكتاب.
- نال جائزة العجيلي في القصة القصيرة، وجائزة اتحاد الكتاب العرب بطرطوس.
- يكتب المقال النقدي، الثقافي والفكري وينشر في الدوريات المحلية والعربية.
- ساهم في إعداد برنامج إذاعي عن السينما لدورتين إذاعيتين، وكتب للمجلة الثقافية في التلفزيون السوري.

الطبعة الأولى / ٢٠١١م

عدد الطبع ١٠٠٠نسخة

تتناول قصص هذه المجموعة حالات وأحداث هي كناية عن أزمات الإنسان في المجتمع المعاصر وتلازماتها، العزلة والاغتراب اللذان يطبقان على الفرد ويزجّانه في صعوبة التواصل والتفاعل مع الآخر، ويحيلان إحساسه بمحيطه إلى العبثّية، فيبدو الواقع أقرب للافتراض والتوّهم.

الخوف المكبوت، من كل شيء ولا شيء، والمقنّع بمظاهر الحياة الطبيعية، بالصمت والابتسامة، بالهرج والصخب. التمّرد لترميم إنسانية منتهكة بصرف النظر عن جدواه أو عدمه.

كما ترصد هذه المجموعة العوز للقيم والذي نحاول إشباعه بالاتكاء على رموز الماضي، وأزمة المثقف في إدراك ذاته والآخر في مواجهة التسلّط الثقافي والمجتمع التقليدي.

قصص ترصد بحساسية الترمومتر فواصل ومفارقات معينة في سياق سيرورة الحياة.

الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١١م

سعر النسخة ٨٠ ل.س أو ما يعادلها